

A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A. U. B. LIBRARY

1.55 1.75

سعادة الدكتور من يتي عزاد
محمد دار المعلمين العاليه ببغداد
مدير دار الافتاء

962 الجامعة الازهرية
N146tA
C.1

155-17861

١٢/٢/١٤٢٢

كُلِّيَّةُ أَصُولِ الدِّينِ

تاريخ

مصر الاسلامية

﴿ تأليف ﴾

محمد مبروك نافع

(أستاذ التاريخ بدار العلوم)

والمنتدب لتدريس هذه المادة

بكلية أصول الدين - بتخصص المادة

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

١٣٥٨ - ١٩٣٩



طبعة شبرا وكتبتها بمطبعات دار الافتاء
٥٨٧٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين ، وعليه التكلان ، وهو ولي التوفيق

مصر الإسلامية

من لدن الفتح العربي إلى آخر العهد الأموي

الباب الاول

استعراض سريع لتاريخ مصر الرومانية

تمهيد:

لم تقف مصر منذ سقوط الأسرة الثامنة عشرة موقف المهجوم بل وقفت في الغالب موقف الدفاع ولم تكن انتصارات رمسيس الثاني إلا صد الهجمات الحيثيين الذين كانوا يغبون في فتح مصر وليس أدل على ذلك من أن رمسيس الثاني لم يستطيع دفع حدود الامبراطورية الثانية إلى أبعد من حدود فلسطين - على أن فلسطين هذه ثارت في عهد خلفه منفتاح فأخضعها كما أخضع من أغاروا على الدلتا من اللوبيين وسكان جزائر البحر الأبيض - وقد عاد اللوبيون إلى الغارة على مصر فهزمهم رمسيس الثالث من ملوك الأسرة العشرين وكان ملوك هذه الأسرة المتأخرون دمي تحررهم أيدي الكهنة الذين انتهى بهم الأمر إلى إقامة أسرة من الكهنة هي الأسرة الحسادية والعشرون التي فقدت مصر في عهدها طور سيناء وفلسطين - ثم تعاقب

على الحكم في مصر أسرات من اللوبيين ، والنوبيين ، والآشوريين وظلت الحرب سجلا بين الأخيرين حتى أنتهى الأمر بأن استقبل بمصر بعض أمراء الدلتا فأسسوا الأسرة السادسة والعشرين التى أعاد ملوكها إلى مصر استقلالها وشيئا من مظاهر مجدها القديم ولكنهم كانوا يعتمدون فى حكمهم على الجنود المرتزقة من الاغريق : —

وفى سنة ٥٢٥ ق . م سقطت هذه الأسرة السادسة والعشرون وأصبحت مصر ولاية فارسية على يد قبيلز وتعاقب الفرس والمصريون الغلبة على مصر طوال أيام الأسرات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ حتى إذا كانت سنة ٣٣٢ ق . م يحدثنا التاريخ أن الاسكندر هزم الفرس فى معركة إيسوس الشهيرة ثم دخل مصر فى السنة التالية فأسس مدينة الاسكندرية لتكون عاصمة للـ ملكه بعد أن يتم له فتح العالم ، ولكن القدر عاجله فمات فى نابليون تاركاً حكم مصر لأخلافه البطالسة الذين أسسوا فيها دولة جمعت بين الثقافتين الاغريقية والمصرية القديمة واستمرت دولتهم يصفها بعض المؤرخين بأنها مصرية قحة حتى سنة ٣١ ق . م وهى السنة التى أصبحت فيها مصر جزء من الامبراطورية الرومانية :

الفتح الروماني لمصر :

مات بطليموس الثالث عشر وترك الملك لولديه بطليموس ١٤ وأخته كليوباترا فحكم الأول بالاشتراك مع أخته حيناً ولكنه طردها - وجاء يوليوس قيصر إلى مصر ليستفيد لروما الناهضة من

هذا النزاع بين الجالسين على العرش فدفرت كليوباترا حيلة للقائه ، وقتل بطليموس ١٤ بعد ذلك ، ثم تزوج يوليوس قيصر من كليوباترا وفق الشريعة المصرية فاعتبره المصريون بذلك فرعوناً لمصر ، وقد أثمر هذا الزواج ولداً هو بطليموس ١٦ المعروف عند الرومان باسم قيصر - وعاد قيصر إلى روما فتبعته كليوباترا مع طفلها وظلت هناك حتى قتل قيصر - وعادت إلى مصر فدفرت قتل أخيها الآخر بطليموس ١٥ ، ثم اتفقت مع أنطونيوس الذي وقع في غرامها على أن تزوج منه وعلى أن يحكما العالم الروماني باسم قيصريون بن كليوباترا من قيصر ، ولقد شاع في روما أن أنطونيوس يريد أن يتخذ من الاسكندرية عاصمة الامبراطورية الرومانية بعد زواجه من كليوباترا فقللت هذه الاشاعة بالحب الشعب والجند لأنطونيوس بقدر ما قوت جانب منافسه اكتافيوس ، وكانت نتيجة ذلك الصراع أن دارت رحى معركة حاسمة في اكتوبر سنة ٣١ ق م بين أسطول اكتافيوس من جهة وأسطول كليوباترا وأنطونيوس من جهة أخرى ، وانسحبت كليوباترا والمركة في أمانها إلى مصر فتتبعها أنطونيوس في مركبه وبذلك دارت الدائرة عليه وانتصر منافسه وأصبح اكتافيوس بذلك سيد العالم الروماني ، أما أنطونيوس فانه انتحر في الاسكندرية وانتحرت بعده كليوباترا التي فشلت في اغراء اكتافيوس بحملها الشخصي - ودخل اكتافيوس بعد ذلك مصر فنادى به أهل الوجه البحري حاملاً عليهم وما هي إلا مدة فليمة حتى أصبحت مصر ولاية رومانية .

(٣) إدارة مصر في عهد الرومان :

لم يغير الفتح الروماني لمصر من إدارتها الداخلية كثيرا فقد كان من سياسة الرومان إذا ضموا إلى بلادهم مستعمرة جديدة أن لا يغيروا من أنظمتها النائمة إلا بقدر ما يتطلبه الظرف الجديد وفوق هذا فإن مصر كانت تعتبر من الممتلكات الشخصية لأغسطس وهو اللقب الذي حصل عليه اكتافوريوس بعد أن انقرد بحكم الامبراطورية الرومانية بينما كانت المستعمرات القديمة التي ضمت في أيام الجمهورية تعامل معاملة مختلفة لأنها كانت تفتح باسم الدولة بأجمعها وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أن الفتح الروماني لم يغير من مصر إلا الأسرة الحاكمة فقط وكان أوغسطس يعتبر أن مصر من ممتلكاته الخاصة فمنع رجال مجلس الشيوخ في روما من التدخل في شئونها وحرّم عليهم ولاية شئ من أعمالها وحتى الرحلة اليها فإنه حرّمها إلا باذن خاص منه ولم يغير شيئا من الأنظمة الداخلية التي وضعها البطالسة ونصب من قبله حاكما على البلاد وكان مقره مدينة الاسكندرية وكان له أن ينتقل إلى البلاد المختلفة لسماع المظالم والاصلاح بين المتخاصمين وجمع الضرائب والاشراف على الجيوش وعمل الاحصائيات وقسم أوغسطس المملكة الى عدة مديريات يحكم كلا منها مدير ؛ وكان للوالى مساعدان في أول الأمر فيما يستعين بهم في الاشراف على إدارة الأقسام الثلاثة الكبرى وهي مصر السفلى ومصر العليا ومصر الوسطى والتغيير الوحيد الذي أدخله أغسطس هو إلغاء مجلس مدينة الاسكندرية الذي كان أشبه

ما يكون محكومة محلية وكان أهل الاسكندرية ومعظمهم من الاغريق يعتبرون أنهم من جنسية الحكم ويجب أن تكون لهم ميزات خاصة فأراد أوغسطس أن مجردهم من كل الامتيازات التي اكتسبوها أيام البطالسة ويشعرهم أنهم وبقية أفراد الشعب سواء وسوى ما بينهم وبين اليهود في جميع الحقوق والامتيازات بل لا تعدو الحقيقة إذا قلنا إنه وضع اليهود في مستوى أرق قليلا من الاغريق .

الحالة العامة :

ولسنا هنا في صدد الكلام عن تاريخ الرومان في مصر إذ أن المجال لا يتسع لذلك إن : صر باستيلاء الرومان عليها دخلت في عهد تحول سياسي طويل امتد زهاء سبعة قرون كانت مميزاته ما يأتي .

- (١) إن مصر اعتبرت حقلا لانتاج الحبوب التي كانت تحتاجها روما والتي كانت تغطي الشطر الأكبر من الخارج المفروض عليها :-
- (٢) أن الفنون والمباني تدهورت في هذا العصر وفقدت طابعها القديم التي ظل البطالسة محافظين عليه أيام حكمهم للبلاد - حقيقة أن الرومان أقاموا في أول عهدهم بضعة معابد على الطراز المصري القديم كما شيدوا أجزاء جديدة في بعض المعابد القديمة مثل معابد مدينة هابو ، وفيلا ، ودندرة ، وغيرها ، ولكنهم سرعان ما أوجدوا تغيير وأخذوا يشيدون المباني على الطراز الاغريق أو الروماني ؛ وكذلك تدهورت فنون الرسم والتصوير وحل محلها فنون هي خليط من المصرية والاغريقية بدأت في أول الأمر جميلة إلى حد ما ولكنها سرعان

ما فقدت جمالها وقل انتاجها بسبب ما لحق البلاد من الانحطاط
والانحطاط نتيجة للعسف والاستبداد .

٢٣ كذلك أهملت الكتابة الهيروغليفية وقد كانت في عهد
البطلمية تسير جنباً لجنب مع الكتابة اليونانية ولكنها في هذا العصر
الروماني أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى نسيت بقائنا في آخره وظلت
النقوش والكتابات الهيروغليفية التي تملأ صفحات المعابد والآثار
المصرية مجهولة لا يعرفها إنسان وما زالت كذلك إلى القرن التاسع عشر
الميلادي إذا استطاع العلماء أن يحلوا رموزها بعد كشف حجر رشيد
وفك طلاسمه - على أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هزيمة المصريين
لم تخضعهم ولم تستطع الدولة الرومانية بقوتها وجبروتها أن تصيرهم
روماناً أو ترو منهم على حد التعبير الأوربي فلقد غطى المصريون عار
هزيمتهم بأن أخذوا يعتبرون اكتافايوس ومن تلاه من الأباطرة فراغة
لهم على اعتبار أنه كان وريث يوليوس قيصر الذي كان فرعونهم الشرعي
بزواجه من كليوباتره - والمدحش في الأمران أباطرة الرومان كانوا
يشابهون المصريين في عقيدتهم هذه فيتوجون باعتبار أنهم مندوبيون
عن فراغة مصر ويمنحهم المصريون الألقاب والأسماء المصرية المعتادة
كذلك يجب أن نذكر أن الشعب المصري بأسره ظل على عاداته
وأخلاقه القديمة كان لم يحدث حدث ونرى هنا أن نكتفي بعد إذ بينا
الحالة العامة في مصر في هذا العصر الروماني أن نأتي على ذكر بعض
الحوادث الهامة التي وقعت في ذلك العصر .

١، في عهد أوغسطس كان أول حاكم على مصر كورنيليوس جليوس
وكان الحاكم الثالث آيليوس جليوس وفي عهده حاوات مملكة أثيوبيا
أن تغزو مصر .

٢، في عهد كاليجولا سنة ٣٧ م حدث اضطهاد لليهود إذ نهب
الاغريق الحى الاسرائيلى فى الاسكندرية وذبحوا عددا كبيرا من
سكانه ولكن انتهى الأمر باصلاح الامبراطور بين الفريقتين .

٣، فى عهد نيرون سنة ٥٥ م بدأت الدعوة المسيحية فى مصر
وكان يتولاها القديس مرقس وازدادت العناية بالزراعة بعد كرى
الترع والخلجان وكذلك تقدمت التجارة مع الشرق حتى وصلت إلى الصين
٤، فى عهد ثراجان سنة ٩٨ م تمت الأعمال الآتية :

ا - حفر خليج من النيل إلى البحر الأحمر لتوسيع التجارة مع
الشرق «ب» جدد بناء حصن بابليون الذى يرجح أن الفرس أسسوه
ليحمى مخرج القنال من النيل ولا تزال بعض آثاره باقية إلى الآن
بالقرب من كنيسة مارى جرجس بمصر القديمة وهو الحصن الذى
قاوم العرب مدة طويلة أيام الفتح كما سيأتى «ج» فى أيامه أيضا تم بناء
معبد فيلا المعروف باسم قصر أنس الوجود «د» حصل قحط شديد
بسبب انخفاض النيل فأرسل سفنا محملة بالقلال من روما إلى الاسكندرية
ليبقى البلاد شر المجاعة «هـ» وفى عهده حصلت فتنة كبيرة بين اليهود
والاغريق قام اليهود فيها بذبح كل ما وصلت إليه أيديهم من الاغريق

الذين التجؤوا إلى الاسكندرية وذبحوا كل من كان فيها من اليهود وانتهى الأمر بطرد اليهود الى الصحراء

٥) في عهد مارك أوريل قامت ثورة داخلية بدأت في بعض فرق الجيش ثم انتشرت في جميع أنحاء البلاد وهذه الثورة أهمية خاصة لأن الثورات في عهد الرومان كانت قاصرة على السكندريين أو بين بعض الطوائف وبعضها الآخر أما هذه فكانت موجهة ضد الرومان لظلمهم

٦) في عهد كاراكلا سنة ٢١١ م وكان امبراطورا ضعيفا فسخر منه المصريون وجعلوه موضعاً لتهمكاتهم فأثني إلى الاسكندرية وجمع عددا كبيرا من الشبان خارج المدينة وقتلهم وألغى الألعاب التي كان يقيمها أهل الاسكندرية وأمر فقسمت الاسكندرية إلى قسمين بمجدار أقامها وسطها وحرم على سكان أحد القسمين الاختلاط بالآخر -

٧) وفي عهد جالينيوس سنة ٢١٠ م غزت مصر زينوبيا ملكة تدمر سنة ٢١٨ م وساعدها على الغزو بعض قبائل البجة الذين كثير اماكنها تغيرون على مصر من الجنوب وظلت في مصر سنتين حتى تمكن الرومان من طردها :-

وفي عهد دقلديانوس سنة ٢٨٤ م وصل اضطهاد المسيحيين الذي بدأ من العهود السابقة الى أقصاه حتى إن الأقباط يؤرخون تاريخهم من أول ولايته والسبب في اضطهاد دقلديانوس للأقباط يرجع الى أن دقلديانوس رغب الى جميع الرعايا أن يضعوه موضع الألوهية ليضمن بذلك حياته وملكه ولكن مسيحي مصر لم يخضعوا لارادته وقالوا

أشد المقاومة فاضطهدهم وعذبهم ولم يزدحم ذلك إلا تمسكا بدينهم فذبح
 منهم عددا عظيما لا نستطيع أن نمجده بالضبط من جميع الطبقات وكان
 من بين الذين طلب اليهم دق... لديانوس الارتداد عن النصرانية فتاة
 حسناء تدعى دميانه كانت رئيسة لدير بجبة بلباس فلم تسمع له فأمر
 بذبحها بعد أن عذبها ولا يزال قبرها أو مشاهدتها يزورها الأقباط إلى
 الآن في كل عام - وعلى الرغم من أن عهد دقلديانوس جدير أن يسمى
 عهد الشهداء لكثرة ما أريق فيه من الدماء وحل فيه من الاضطهاد ،
 إلا أننا يجب للتاريخ أن لا ننسى أنه كان عهد إصلاح أيضا فلقد صد
 بعض قبائل النوبة والبجة التي كانت تغير على مصر من الجنوب والشرق
 وأصلح مالية البلاد ونظم ضريبة الغلال فبعد أن كانت ترسل كلها إلى
 روما أبقى قسما منها ليمدرا الأرض وقسطا لأهل الاسكندرية ليكون
 تعويضا لهم عما أصابهم من كثرة الثورات والقتل . ولقد اعترف
 أهل الاسكندرية بفضل هذا حتى أنهم أقاموا له في وسط مدينتهم
 عمودا يعرف الآن بعمود السوارى اعترافا بجميله ويعرف هذا العمود
 بعمود بمباى وهو خطأ لا أصل له - هذا ولو لم تحدث في آخر عهد
 دقلديانوس تلك الاضطهادات التي أشرنا إليها لكان عهده أحسن
 العهود .

هـ) الصراع بين الحكومة والكنيسة :

في الفصل الماضي أوامنا إلى اضطهاد الدولة الرومانية لمن تنصر في
 مصر منذ دخول المسيحية على يد القديس مرقس إلى أن بلغ الاضطهاد

أقصاه في آخر عهد فلديانوس سنة ٣٠٤م المعروف عصره بعصر الشهداء ونريد هنا أن نفتتح فصلا جديدا لعهد قلسطنطين الذي حكم من سنة ٣٢٤م - سنة ٣٣٧م ذلك لأن فصلا جديدا افتتح في تاريخ الدولة الرومانية نفسها إذ أعلن قلسطنطين الأكبر أن المسيحية أصبحت دين الدولة الرسمي ولا يهمننا هنا فعل هذا عن إيمان بالعقيدة المسيحية أم خادمة لأغراضه السياسية كما يقول بعض المؤرخين - إنما يهمننا أن نقرر أن المسيحية التي لقيت عننا في العهود الماضية أصبحت يسارع كثير من الحكماء والكبراء والأغنياء الآن إلى اعتناقها تزلزلا إلى الامبراطور والقرب منه .

وقيل تنصر قلسطنطين كانت المسيحية قد عمت كل بلاد مصر وكان الانقسام قد بدأ يدب بين الطوائف المسيحية في مصر نفسها وكان نشأة هذا الانقسام ما حدث بين أثناسيوس وأريوس على علاقة الآب بالدين وخشى الامبراطور أن تتسع هوة الخلاف فأراد أن يحسم النزاع في أوله فاستدعى اليه الاسكندر أسقف الاسكندرية وأريوس فلم يستطع أن يقنع أحدهما الآخر فاستدعى الامبراطور في سنة ٣٢٥م جمهورا من أساقفة المملكة وعدد كبير من كهنة الشرق وأسقف أو اثنين من الافرنج ليجتمعوا في نيقية ويضعوا حدا لذلك النزاع وقد احتدم الجدل بين المتخاصمين في أول الجمع وكان الشماس اثناسيوس يقاوم آراء أريوس بشدة ثم عاد للمجلس الوقار وجرى أخذ التصويت لآراء الخصمين فحكم المجلس بتضليل أريوس وبأن يسوع الابن هو إله من

جوهر واحد مع الأب وقرروا أن مبدأ أريوس الذي يقول بأن المسيح والله من طبيعة متشابهة خطأ وإلحاد ثم نفي الامبراطور أريوس وقرر المجمع قانون الايمان المعروف الآن بالنيقي ثم رأى الامبراطور بعد ذلك أن الخلاف تافه لا يحتمل كل الضجة التي قامت حوله فاستدعى أريوس من منفاه وأعادته إلى كنيسته وكلف اثناسيوس الذي كان قد عين أسقفاً مكانه باستقباله وطاعته - وعلى الرغم من أن قسطنطين لم يعلن أن المسيحية هي الدين الأوحى للدولة فإن العلماء الوثنيين فقموا عضدهم فقتل الاقدام على مدارسهم وأخذت الوثنية تضعف شيئاً فشيئاً إلى أن كان عصر الامبراطور ثيودسيوس الأول سنة ٣٤٩ - سنة ٣٩٤ م الذي ضرب الوثنية الضربة القاضية فأعلن أن المسيحية هي الدين الأوحى للدولة «واستثنوا من كانوا يهوداً» فاضطهد الوثنيون في مصر وأغلقت معابدهم وكسرت أصنامهم وبعثت الكتب التي كانت تغص بها - مكاتب الاسكندرية والتي كانت تحمل التعاليم الوثنية ثم تحول الكثير من المعابد إلى كنائس بعد أن طمست نقوشها وصورها الوثنية بالطين والكس ولكن المصريين صابروا على تحنيط موتاهم رغم تحريمه عليهم . وانتدب الامبراطور مائة وخمسين أسقفًا للقسطنطينية لتقرير قانون الايمان النيقى فصادقوا عليه ولعنوا الأريوسيين وطردهم من كنائسهم وكان من نتائج ذلك أن عطلت الدراسة في المدرسة العليا المسيحية التي كانت بالاسكندرية .

وفي عهد ثيودسيوس الثاني الذي حكم من سنة ٤٠٨ - سنة ٤٥٠ م

تجدد النزاع بين الأريوسيين وخصومهم وأخذ دورا عنيفا وتشعبت
الخصومات وانتهى الأمر بانتصار مبدأ البطريق كيريل الذى كان يقول
بأن المسيح والعذراء لهما طبيعة ثنائية مخالفة بذلك رأى كنيسة
القسطنطينية التى كان أسقفها فى ذلك الوقت نسطوريوس وقد اضطر
الامبراطور أن يحشد جمعا من أساقفة المملكة فى مدينة ايفوس للحكم
فى الخلاف فحكم المجمع بتضليل نسطوريوس فنفاه الامبراطور الى
الصحراء .

وفى عهد مارقيانوس الذى حكم من سنة ٤٥٠-٤٥٧م عادت المنازعات
الدينية بين المسيحيين ولكنها أخذت صفة جديدة إذ أن كاهنا فى
القسطنطينية يدعى أوتيجيس أخذ يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح
مخالفا لرؤساء القائلين بالطبيعتين فاضطر الامبراطور أن يعقد مجمعا
فى خالقدونة سنة ٤٥١م فأصدر المجمع حكما بضلال هذا الكاهن وضلال
أسقف الاسكندرية الذى عاضده فى أقواله وكانت مصر إذ ذاك قد
تبرأت تماما من مذهب أريوس واتحدت على مذهب الطبيعة الواحدة
الذى صار فيما بعد يعرف بالمذهب اليعقوبى فأبت أن تأخذ دينها عن
اغريق الاسكندرية وأنكرت قرار مجمع خالقدونة واضطر الامبراطور
إلى أن يبعث بجيش ليثبت مركز الأسقف الجديد فأساء المصريون
استقباله وتلت ذلك اضطرابات فى البلاد .

وفى عهد جاستينيا الذى حكم من سنة ٥٢٧-٥٦٦م استدعى
الأسقفين من الاسكندرية إلى العاصمة ثم أبعدهما وعين أسقفا واحدا

ليعمل بقانون مجمع خالقدونية على الرغم من إرادة المصريين فاحتملوه
بضع سنوات طردوه وطردوا كافة أساقفة المذهب الاغريقى . ولما
بلغ الأمير ما فعلوه أرسل أيولينا يوس اسقفًا وحاكمًا على الاسكندرية
فدخلها على رأس الجند بزيه العسكرى .

ولما وصل إلى الكنيسة خلع لبسه العسكرى ولبس رداء الأسقفية
فلم يكذبكم حتى حصبه من كان في الكنيسة ففر وبعد ثلاثة أيام
أرسل مناديا بالأسواق يدعو الناس لاستمتاع قراءة كتاب الامبراطور
يوم الأحد وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل والنساء بالسبي رحمه
الناس كما فعلوا في القوم الأول وعند ذلك دخلت الجنود الكنيسة
شاهرة سيوفها فأخذت تضرب الناس وتقتلهم حتى أسالت دماء غزيرة
ولم يجترأ أحد بعد ذلك على مقاومة الأسقف الاغريقى الملكى ومن
يوم هذا استتب الأمر لجميع الكهنة الملكيين بصفتهم كهنة وولاة
وجمع الامبراطور السلطة الذمنية والدينية في يد واحدة ولاكن
البطارقة الملكانيين كان انصرفهم إلى الشئون الزمنية أكثر من انطرافهم
إلى الشئون الدينية بينما يعقوبيون كان بطريقتهم من الرهبان لا شاغل
له إلا الدعاء لأم الله والحوارى مرقس . وبينما كنا نرى الملكانيين
يتأثرون على تلاوة الصلاة القديمة زائدين عليها الشهادة بوحدة جوهر
الآب والابن - كنا نرى اليمانية يرتلون الصلاة الجديدة التى وضعها
كيريل وغيره باللغة القبطية ويضيفون عليها الشهادة بالطبيعة الواحدة
الالهية كاطنيين غيظهم من الاغريق ومحتملين بجلد وصبر ما كان يصبه

الامبراطورية على رؤوسهم من غضب واضطهاد وأحس الامبراطور
 أخيرا بهذا الحيف ورأى أن مما كتمه يتهددها الفرس فأعرض عن
 ظلم اليعاقبة بل ويقول بعض المؤرخين إنه اعتنق مذهبهم رغبة في
 اكتساب ولائم - وقصارى القول وحماده أن حالة مصر في العهد
 الأخير من الحكم الروماني « في عهد الدولة البيزنطية » كانت حالة
 بؤس شديد وفقر متقع تمزقها الاضطهادات وتفككها الخصومات
 الدينية وانقلبت مصر إلى حقل واسع يذبت القمح للرومان والأهلون
 بمثابة آلات لانباته وقد كادت زراعته أن تكون هي الحرفة
 الوحيدة وأصبحت الثروة قاصرة على أفراد قلائل بل وربما كانت
 القرية الواحدة أو القرى المتجمعة بأجمعها في يد ثرى واحد وكان على
 المصريين أن يقدموا بيوتهم لجند الامبراطور وفي أكثر من حالة كنا
 نرى الجند الامبراطوري يحملون الأديرة والكنائس .

وكانت الضرائب فاحشة وتتناوم كل شيء فكانت هناك ضريبة
 على الأراضى وضريبة على الحيوان وضريبة على البيوت وعلى ما فيها
 من متاع وكانت جزية الرؤس تفرض على ما بين سن الرابعة عشر
 والستين وكان يكره الناس على أن يقدموا أموالا يوصف أنها هدية
 منهم للامبراطور عند توليته وكان على التجار أن يقدموا جزء من
 أموالهم بما يشبه ضريبة الدخل الآن وكان الداخل إلى المملكة لا بد
 أن يدفع ضريبة وعلى المنتقل من إقليم إلى آخر أن يدفع ضريبة وكان
 الوارث لا يحصل على اثة إلا إذا دفع ضريبة وكان المدين الذى يتأخر

عن دفع دينه لدائنه يدفع غرامة للحكومة وكان لبعض الموظفين الحق في أن يفرضوا ضرائب خاصة لهم على الناس وكل هذا عدا ما كان يسخر فيه الناس من الأعمال العامة ككبرى الترع وإقامة السدود - فلا غرو والاعباء ثقيلة على الناس كما ترى إذ رأينا الكثير منهم يفرون من المدن إلى الأديرة التي شاعت كثيراً في العصر الروماني ليتخلصوا من هذه الاعباء الثقالة - وحتى المعابد فانها لم تكن أيضاً تخلوا من الضرائب يحصلها القساوسة على أنها من النذور أو الزكاة ويدفعون الشطر الأكبر منها للحكومة .

الباب الثاني

مصر قبيل الفتح العربي

(١) الصراع من أجل مصر وولاية هرقل :-

ذكرنا في آخر الباب السابق تاريخ مصر في عهد الامبراطور جاستينيان ونذكر هنا أن هذا الامبراطور نهض نهضة عظيمة بالدولة الرومانية الشرقية فد حدودها من بلاد القوقاز والعرب شرقاً إلى مضيق جبل طارق غرباً حتى لقد خيل إلى الناس أن جاستينيان قد بعث الحياة من جديد في الدولة الرومانية يشقها الشرق والغربى ولم يكن نفوذه وفوزه ممتداً في ميادين الحرب فحسب بل امتد نفوذه أيضاً في ميادين العلوم والفنون وكانت الاسكندرية في عهده كما كانت منذ استيلاء الرومان على مصر ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية وعند ما سقطت الدولة الغربية يصح جداً أن تعتبرها ثانية مدن الدولة

الشرقية وأهم ثغورها من الناحيتين التجارية والمالية ولسنا نعدو الحقيقة
 فى شىء إذا قلنا إن مصالح مصر كانت تتمركز فيها - وقد كان سكانها
 خليطاً من أمم مختلفة أشهرهم التجار من المصريين واليونان واليهود
 ولم يكن هؤلاء على وفاق أبداً بل كانوا يكرهون بعضهم البعض
 ويتحينون الفرص لا يثار الشعب فى المدينة وترجع عوامل الشعب
 إلى سببين أحدهما سياسى والآخر دينى وكانت الحكومة فى
 القسطنطينية تبعث بموظفين بيزنطيين لا ينقطع سوء التفاهم بينهم
 وبين أهل المدينة . وكان الخلاف الدينى على أشده بين القسطنطينية
 ومصر وكم من مرة حاولت الحكومة أن تبطش بالكنيسة الوطنية
 فى مصر ولكن دون جدوى ولقد كان من بعض نتائج ذلك الطغيان
 أن ممثلى الديانة المسيحية وممثلى الديانة المصرية القديمة كانوا فى أول الأمر
 على استعداد مستمر لمعارضة الحكومة - حقا لقد ازدهرت الحكومة
 الرومانية فى عصر جوستينيان ولكنه كان ازدهاراً مؤقتاً لم يعبده إلى
 عصر من خلفوه من الابطاطرة ويجب أن تذكر فى هذا الصدد أن الفضل
 فى بقاء الامبراطورية إنما يرجع إلى سوريا ومصر فحسب فهما اللذان
 كانا يمولان الامبراطورية ويزودانها بالثروة ولذلك لم يكن عجيباً أن
 يبذل الابطاطرة أقصى ما فى جهودهم للاحتفاظ بهما .

وفى مفتتح القرن السابع الميلاد كانت الامبراطورية الرومانية
 بلوح كأنها تحتاز مرحلة عنيفة بانتقالها من حال الانحطاط والتدهور
 م - ٢ - مصر الاسلامية

إلى حال الانحلال والفناء ويمكن ارجاع ذلك إلى الأسباب الآتية :-

(١) هجمات البرابرة (٢) الحاجة إلى المال (٣) ضعف الحكومة وعدم قدرتها (٤) ظهور أمم مستقلة كبلاد الغال واسبانيا (٥) انتشار الأوبئة والزلازل (٦) وأخيرا محاولة السكان في المدن الكبيرة الذين ينتمون إلى جنسيات مختلفة إفساد الجو وإفشاء الشر - ويمكن أن يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر وهو ما كان يبيده الجيش من استعداد للثورة ليخلع امبراطورا بغيضا ويقيم مكانه قائدا من قواد الجند المحبوبين ليحكم العالم الروماني

وفي نوفمبر سنة ٦١٢ م ثار الجند بالامبراطور موريق «موريس» وأقاموا مكانه جنديا جاهلا مشوه الخلقة هو - فوكاس - وبعد مضي سبع سنوات من هذا التاريخ كانت الامبراطورية على أبواب ثورة شاملة وقد بدأت هذه الثورة في بانطابوليس بأفريقية التي كان يحكمها الوالي هرقل - ولما كان هرقل من كبار السن بحيث لا يستطيع أن يتولى قيادة الثورة بنفسه فانه عهد إلى ابنه هرقل وإلى صديقه نيقتياس القيام بهذه المهمة وقد ساعدهما في ذلك قريب لفوكاس «صهرله» يدعى كريسموس كان من الحاقدين عليه - وان قصة السباق إلى القسطنطينية برأوبجرا التي ذكرها بعض مؤرخي بيزنطية والتي خلق لها المؤرخ الانجليزي جيون أهمية بذكره إياها في تاريخه العظيم «قيام وتدهور وسقوط الدولة الرومانية» لتبدو كاذبة في نظر المؤرخ المحقق ، وتتلخص هذه القصة في أن هرقل ونيقتياس انفقا على أن يسير أحدهما بحرا والثاني برا إلى

القسطنطينية فن سبق الآخر منهما إليها كان جزاؤه أن يفوز بتاج
الامبراطورية . وقد ابتداء في سباقهما هذا المزعوم ومع كل منهما قوة
من الجيش مساوية لما مع الآخر وكان على هرقل أن يجوز البحر الأبيض
المتوسط ثم يساحل ببلاد اليونان ومقدونيا وبعد ذلك ينقض على
القسطنطينية . أما نيقتياس فكان عليه أن يسير إلى مصر وينتزعها
من يد فوكاس ثم يسير مخترقا فلسطين وسوريا وقيليقيا وآسيا الصغرى
إلى القسطنطينية - تقول أن هذه القصة تبدو كاذبة معتمدين في ذلك
على ما كتبه العلامة بترل الذي اعتمد في تفنيدها على ما ورد في كتاب
حنانياقيوسى الذى عاش في النصف الثانى من القرن السابع واتصل
بكثير من الشيوخ المعمرين الذين شاهدوا بعض الحوادث التى أدت
إلى سقوط فوكاس .

أما الأسباب الحقيقية لحملة هرقل بحرا إلى اليونان ولحملة نيقتياس
برا إلى مصر فيمكننا أن نلخصها فيما يلى .

١ « أن بائطابوليس لم يكن فى قدرتها أن تموّن بالمال والرجال
والعدة جيشا يستطيع أن يثير ثورة ناجحة وعلى ذلك كان على كل من
القائدين أن يعتمد فى تموين نفسه على البلاد التى يجتازها فى طريقة :

٢ « أن سالونيك كانت تعتبر مفتاحا لآى هجوم ناجح على العاصمة
وكان لهرقل حزب كبير يعضده فيها فكان بذلك يستطيع أن يضاعف

عدد جنده هناك وفوق هذا فإن هذه المنطقة كانت تهيم على الطريق
التجارى ما بين القسطنطينية والغرب .

٣٣ وكان الغرض الأساسي من الاستيلاء على الاسكندرية هو الحصول الهيمنة على ما تخرجه مصر من قمح وخيرات واستعانت به بما في ميناء الاسكندرية من اسطول تجارى أو حربي وقد استطاع هرقل أن يجنّد جيشا صغيرا ويبعث به تحت قيادة نيقيتاس عن طريق الساحل إلى مريوط التي استطاع بالرشوة أن يكسب حاكمها في جانبه .

وكان على فوكاس أن يحتفظ بمصر ويتمسك بهما مهما كلفه الأمر ومن أجل ذلك بعث بمدد إلى الاسكندرية ومنوف وإزيب بينما كلف يونسوس بالاسراع إلى مصر على رأس من معه من الجنود - وفي هذه الاثناء كانت مدينة كابسين « على الساحل إلى الغرب من الاسكندرية » قد سامت لنيقيتاس دون مقاومة ولكنه وجد نفسه غير قادر على الهجوم على مدينة الاسكندرية مباشرة - والظاهر أن حاكم الاسكندرية قد دفعه الخوف من غضب السكان إلى الخروج للملاقاة نيقيتاس فدارت بينهما حرب انتهت بانتصار نيقيتاس انتصارا مبينا قتل فيه القائد الامبراطورى ودخل الجيش المدينة من باب القمر فلم يلق بعد ذلك كيذا يذكر وكانت النتيجة أن نيقيتاس نجح في الشطر الأول من خطته إذ بذلك استولى على مخازن القمح وما في المدينة من أموال وعلى السفائن كما استولى على جزيرة فاروس وحصنها . جزيرة فاروس كما قال قيصر من قبل هي أحد مفتاحي مصر أما المفتاح الآخر فهو الفرما - وكان على نيقيتاس بعد ذلك أن يستولى على بلاد

الدلتا وقد رحبت بمقدمه كل تلك البلاد عدا مدينتي سننود وأثريب .
أما بونوسس فإنه في ذلك الوقت كان قد وصل إلى الفرما ثم واصل
سيره مسرعا إلى الجنوب الغربي لينقذ مدينة أثريب فنجح في عمله ثم
استمر في أحد فروع النيل من أثريب إلى منوف حيث استطاع أن
يهزم قائدا من قواد نيقيتاس هزيمة ساحقة ولى بعدها كل أنصار
نيقيتاس صوب الاسكندرية وبذلك استطاع الامبراطور أن يسترد
قبضته ويعيد نفوذه في الدلتا وكان على بونوسس أن يهبط في أحد
فروع النيل إلى الاسكندرية ليحاصر تلك المدينة العاصية ولقد قامت
في وجه بونوسس مشكلة عويصة وهي كيف يستطيع أن يستولى على
مدينة كهذه محصنة دون أن يسكون معه أسطول ولقد فشلت أولى
هجماته على المدينة أما نيقيتاس فقد خرج اليه من الباب الشرقى « باب
الشمس » واستطاع أن يشق جيش بونوسس إلى قسمين وهناحلت
الهزيمة به ولما رأى نيقيتاس أن أكثر المنهزمين يسرعون إلى الشمال
تعبهم بمجاعة من جنود السودان وحصرهم ثم قتلهم فلم يبق منهم أحدا
أما بونوسس فإنه فر بمن بقي معه من الجند وصعد الهر إلى مدينة
نيقيوس ومن هناك اتخذ العدة لهجوم على الاسكندرية من ناحيتها
الغربية عن طريق ترعة الشعبان ولكن نيقيتاس أفشل خطته بأن
حطم القناطر التي تعلو الترعة وجعل سير السفن فيها مستحيلا عند
ذلك فكر بونوسس في أن يغتال نيقيتاس ولسكن الذي عهد اليه
بالأمر أفشى الشر ففشلت خطته الثانية وبعد محاولات أخرى توجت

بالفشل فر بنو سوس إلى الفرما ثم ركب البحر إلى فلسطين ومنها
سار في طريقه تسميعه لعنات الناس على ما أبدى من قسوة إلى أن لحق
بسيده فوكاس

أما نيقيتاس فقد فتح منوف ونيقيوس وكان فتحها إيذاناً للمدن
الأخرى ولسائر القواد بأن يسلموا ولم يكذب أي خريف ٦١٠م حتى كان
هرقل سيد مصر بأجمعها ولم يرد ذكر في هذا الصراع لحصن بابليون
والظاهر أنه سلم دون مقاومة أو عن طريق الخيانة

في هذه الأثناء كان هرقل قد أبحر إلى شاطئ اليونان ومر في
أسطوله بين جزائرها أن وصل إلى تساليا ومكث هناك عاماً وبعض
عام يعد جيشاً وأسطولا ويشعل بدسائسه نار الفتنة في العاصمة
وفي سبتمبر سنة ٦١٠م كان هرقل قد استكمل كل عدته بينما لم يكن
فوكاس قد فعل شيئاً ثم تلت ذلك معركة برية واحدة لم تستمر وقتاً
طويلاً الا وقد دمرت قوى الامبراطور تدميرا تاماً ووقع فوكاس
أسيراً فعذبوه ثم قتله اذ قطعوا أعضائه فقطعت يده أولاً ثم بتر
ذراعه وتلا ذلك تشويه آخر ثم قطعت رأسه بعد ذلك وعرضت في
أكبر طرق المدينة أما سائر جسمه فقد سحب على الأرض إلى ميدان
السباق ثم إلى سوق الثيران حيث أحرق في الموضع الذي أحرق فيه
يونسوس قبيل ذلك « قال بترل لعمرى ان تلك المثلثة لم تكن من
عيب في هرقل ولكنها كانت من عيب العصر وما كان معروف فيه من
العادات »

وفي يوم ٥ أكتوبر سنة ٦١٠م ألبس هرقل التاج وأعلن
امبراطورا للدولة الرومانية .

وأصبح نيقيتاس الآن حاكما على مصر فبذل كل ما في وسعه أن
يعيد للحكم المدني الروماني نظامه وأن يعيد للجيش الروماني كيانه ولكنه
لم يستطع أن يوفق بين المصريين وكان أكثر ما يحتاج اليه هو المال
لادارة شؤون الحكومة ولكنه لم يفعل شيئا لتحسين حال المصريين
أو لتنمية مواردهم وكانت الحكومة تشرف على الاسكندرية ومنف
وبابليون وسلسلة من الحصون تمتد من القرما إلى اسوان ولقد نجح
نيقيتاس في حفظ الاسكندرية بما أعفى الناس فيه من الضرائب وبما
منحهم من الامتيازات - وليس من شك في أن هرقل كان حريصا
كل الحرص على أن يستميل قلوب أقباط مصر وكان نيقيتاس في
الوقت عينه يرى لزما عليه أن يجزيهم على ما قدموه من خدمة ولقد
بذل نيقيتاس مساعدة كبرى في التوفيق بين الطوائف الدينية فكان
للأقباط بطريقهم الخالص - ولم يكن المطران الملكاني الذي عينه هرقل
بناء على مشورة نيقيتاس أقل عطفاً منه على الأقباط حتى لقد
نال اعجاب اليعاقبة فبجلوه في حياته وعظموه بعد مماته وذلك هو
حناءة الرحوم أو المحسن أطلق عليه ذلك اللقب لكثرة ما كان يأتيه
من أعمال البر والاحسان ولقد كان من خطة هرقل في مهمل الأمر
أن يوفق بين المذهبين العظيمين اللذين اقتسما أتباع الدين المسيحي
في مصر ولكن العداوة بينهما وإن خمدت كانت تتقد في الخفاء ويندلع

منها الذهب إذا ما هب عليها أضعف ريح من الفتنه ورأت الحكومة
أن من الحكمة التفريق بين رئيسي الدين حتى لا يمسق المتنافسان معا
في العاصمة

والآن وقد المعنا الماعا بسيطا عن الحالة في مصر في عهد هرقل
فانا نخرج الآن إلى الأفق السياسي الخارجى لنرى ما كانت تتجاوب
به الانحاء الشرقية من جليل الحوادث التى تردد صداها على ضفاف النيل
والتي قدر لها أن تهز أركان الحكم البيزنطى فى مصر من أساسها وتمهد
السبيل للفتح العربى وإذا كان لا بد أن نعرف أثر النزاع بين الرومان
والفرس فى مصر فلنلم الماما غير مفصل بأدواره السابقة .

(٢) بين الفرس والروم :

لم تضع الحرب أوزارها بين الفرس والروم زهاء سبعة قرون . ففي
هذه الأثناء كان الفرس قد أجتاجوا معظم أرمينيا وبعثوا بالجند إلى
الشام والقسطنطينية وقد أتاح ضعف فوكاس للفرس فرصة غزو
الامبراطورية الرومانية وبينما كان هرقل يتوج فى القسطنطينية كانت
انطاكية قد وقعت فى أيدي الفرس وبعد ذلك بأربع سنوات سقط بيت المقدس
فى أيديهم أيضا اذ أرسل القائد الفارسى إلى بيت المقدس يدعوها إلى
التسليم فأسلم اليهود المدينة إلى قواد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين
من أهل المدينة على أمرهم . وبعد دخول الفرس المدن قامت ثورة
فيها فصب الفرس جام غضبهم على المدينة فحطموا أسوارها بمساعدة
اليهود وقتلوا من أهل المدينة عددا ضخما قدره بعض المؤرخين بسبعة

وخمسين ألف عدا من أسروا وعدتهم في بعض الأقوال خمسة وثلاثين ألف وبعد أن قضى الفرس في المدينة واحدا وعشرين يوما في القتل والنهب خرجوا من المدينة وأوقدوا فيها النيران بعد أن أخذوا الصليب المقدس وشيثالا حصر له من الآنية المقدسة من الذهب والفضة .

وقد هاجر كثير من السكان بعد هذه الحوادث وولى معظم الهاربين وجههم شطر الاسكندرية « ولعل انتصار الفرس على الروم في بيت المقدس هو الذي نزلت فيه الآية الشريفة « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وقد خفت الساطات من بلاء هؤلاء الفارين من اليهود والنصارى وكان كرم البطاريك حنا الرحوم ذا أثر واضح غير أنه زاد البلاء اشتدادا أن كان فيض النيل في ذلك الصيف فيضا ضعيفا يهدد البلاد بالمجاعة .

وبعد إتمام فتح الشام ولى الفرس وجوههم شطر مصر فبدأوا غزوها في ربيع سنة ٦١٦ وسرعان ما اجتاحت بلاد الدلتا مخربين مدمرين كما هي عادتهم حتى وصلوا إلى الاسكندرية وتميؤا لحصارها وكان أهل الاسكندرية في ذلك الوقت مختلفين على بعضهم فكان الأقباط وأهل الشام يكرهون الحكومة الرومانية واليهود يكرهون المسيحيين من أى مذهب ولم يذكر أحد من كل هؤلاء أن الواجب يفضى عليهم أن يتحدوا في هذا الظرف العصيب ليدفعوا عن البلد التي تأويهم شر الغزو بل على العكس نرى أن الخيانة لعبت دورها وأسلمت المدينة إلى الفرس وقد كانت الاسكندرية محصنة تحصينا تاما ولكن الميناء

وما يحيط به لم يكن عليه من بحرسه وبذلك وجد رجل يسعى بطرس
كان غريباً يطلب العلم في الاسكندرية قيل أنه فارسي وقيل أنه عربي
وقيل أنه يهودي فتسلسل من الباب الذي كان يلي البحر والذي كان
مفتوحاً أبداً لكي تدخل منه السفن الآتية من البحر فوجد بطرس
في هذا الباب فرصته وتسلسل إلى المعسكر الفارسي ليلاً وسمع جماعة
من جنود الفرس أن يدخلوا الميناء متنكرين في زي صيادي السمك
فتمكنوا بذلك في الصباح التالي أن يصلوا إلى أحد أبواب المدينة
وأن يفتحوه لبقية جموع الفرس رافعة لويه النصر وهاتفة باسم كسرى
أما نيقتياس والبطريق حننا الرحوم فالظاهر أنهما فرا قبل أن تقع
الاسكندرية في يد الفرس سنة ٣١٧ أما الأول فقد فر إلى القسطنطينية
وذهب الثاني إلى قبرص التي ظل بها حتى مات وقد هجر نيقتياس المدينة
لأنه كان يعرف أن من المستحيل الدفاع عنها . فلقد كان هذا المصير
التي وصلت اليه متوقفاً فقد أخذ من جندها عدد كبير ليدافع عن بلاد
أخرى من الدولة أو ليدافع عن بيزنطة ذاتها وفوق ذلك فإن الفرس كانوا
قد قطعوا القمح الذي يصل اليها من ريف مصر ليصدر إلى الخارج
فلما طالبت مدة الحصار خشى الناس الجوع ولم يرحب القبط بالفرس
لكثرة ما قتلوا وسلبوا بعد دخولهم ولكن اليهود رحبوا بهم ، ثم
تلت ذلك فترة طاول الفرس فيها أهل الاسكندرية معاملة حسنة وان
كانوا قد أثقلوا عليهم في الضرائب ، ونقلوا الكثير إلى بلاد فارس

وبعد فتح الآس-سكندرية انتشر الفرس إلى الجنوب فواصلوا غزوم حتى أسوان فقد استغرق الفتح بأجمعه ثلاث سنوات أما السنوات العشر التالية التي مكثوها في مصر فكانت أعوام سلام . ولم يكره الفرس أهل مصر على عبادة النار بل ساروا بعد أن استتب لهم الأمر على سنة التسامح في أمور الدين ولقد فرض الفرس على الكنائس جزية تؤديها ولكن هذا ليس مجزوما به ويجوز أنهم استصفوا ما كان للكنائس المملوكية الطريفة من أوقاف وأرزاق أما الأبنية الأهلية فقد عاملوها معاملة أكثر رفقاً مما عاملوا به الأبنية في سوريا . ولعل بعد مصر عن فارس وصعوبة النقل في الصحرا قد حماها من ذلك التخريب الشنيع .

في هذه الأشياء كان هرقل قد فقد كل ممتلكاته إلا العاصمة فقد كان التتر الهون تهجم على ممتلكاته في الشمال وكان الفرس قد وصلوا إلى خلمدونية على الساحل الآسيوي للبرس فور تجماع القسطنطينية وحاول هرقل في أول الأمر أن يشتري الصلح بأى ثمن ثم حاول ثانياً أن ينقل العاصمة إلى قرطاجة وظل مدة طويلة في ضعف وتردد حتى استقر به الأمر إلى أن يضرب آخر سهم في وجه الفرس فلما نجح أبداً وأما فشل أبداً ومهد لتصميمه هذا بأن حاول أن يعقد صلحاً مع القبائل المتبربرة وأن ينير الشعب في بلاد فارس نفسها ثم أن يرفع جيشاً كبيراً ولم ينجح إلا في هذه المحاولة الأخيرة ولكن قامت في سبيل تنفيذها مشكلة وهي : أين يدرب ذلك الجيش ؟

ولم يكن الفرس في ذلك الوقت ولا في أى يوم من ايام تاريخهم بحارة مهرة ولو أنهم استطاعوا أن يكونوا لهم أسطولا لما حال دون سقوط الاسكندرية في أيديهم حائل لقد فتحوا الاسكندرية وفتحوا خلقدونة فلم يستفيدوا من الميناء أو السفن هنا أو هناك ووقف البحر كأنه حائل ضخم يحول دون حركتهم لانهم كانوا يجهلون أهمية القوة البحرية وكانت نتيجة ذلك المباشرة أن هرقل بعد أن أذاب متاع الكنائس الذهبى والفضى ثم صكه نقودا بحر من العاصمة في يوم شم النسيم (عيد الفصح سنة ٦٢٢) ونزل بأسوس واستولى على الممر الذى يفصل بين الشام وقيليقيا وكانت غزوة فيليقيا هذه كأنها الوتد الذى يشق قلب الارض التى كان الفرس يملكونها فيما بين النيل والدمفور ولم تأت سنة ٦٢٧ حتى كان الفرس قد انسحبوا من هنا ومن هناك حتى فبراير سنة ٦٢٨ تكللت أعمال الحرب بفتح دستاجرد وهى مدينة تبعد عن المدائن ثمانين ميلا نحو الشمال وفى الرابع والعشرين من ذلك الشهر فر كسرى هاربا هربا مهينا ولقى حتفه على يد خلفه شيرويه وأحرق قصر كسرى فلم يبق منه شيء وذهب طعمه للحريق كل ما كان به من التحف والكنوز التى يقصر عنها الوصف ثم أطلق من كان فى السجون من أمرى مصر والشام وأعيد الصليب المقدس فى صندوقه الى هرقل لم يمسه سوء .

وبذلك انقذت الامبراطورية ولكن الى حين
وحج الامبراطور فى العام التالى سنة ٦٢٩ ليعيد رفع الصليب

المقدس وفي أثناء رحلته هذه أتاه رسول في حمص أوفى أدياس من قبل
النبي عليه الصلاة والسلام يدعو فيه هرقل إلى الاسلام ولكن بقل
يرجح أن الكتاب وصل قبل ذلك في حياة الملك الأعظم كسرى وفي
الطريق إلى بيت المقدس أيضا جاءه وفد من اليهود ذكروا ما أتوا من
الجرائم في المسيحيين وطلبوا منه العفو فن عليهم بالعهد وكان من
حرص اليهود أن أخذوا منه بذلك العهد كتابه

ولكن منذ ذلك الوقت الذي وصل فيه هرقل إلى قمة النصر
بدأ نجمه يأفل فأولا نراه يسبح بمذبحه اليهود بعد ما أعطاهم عهدا بالآمان
وثانيا نراه أخذ يحاول محاولة فاشلة لتوحيد الكنائس وتجنب أسباب
النزاع وقد حددت سنة ٦٣١ للتوفيق بين المذاهب المختلفة في مصر
وكان في مصر في ذلك الوقت بطريرك وطني محبوب في الشعب
وذو نفوذ عظيم هو البطريق بنيامين الذي بذل جهدا كبيرا في اصلاح
الكنيسة القبطية ورفع المستوى الخلقى وكان هرقل يقصد إلى التوفيق
بين حزبي الكنيسة اليعاقبة والملاكين وكانت صورة التوفيق التي
أقرها تقضى بأن يتمتع الناس عن الخوض في كنه طبيعة المسيح
وعما إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان ولكن عليهم أن يشهدوا أن
له ارادة واحدة أو قضاء واحد ولما دعى قيرس مطران فاسيس في
بلاد القوقاز إلى مذهبه الجديد وجد منه قبولاً فولاة بطرقة الدين في
الاسكندرية وأمره أن يجمع بين المذهبين القبطى والملاكى في المذهب
الموفق الذى ابتدعته حكمة المجلس الامبراطورى

والظاهر أن قبرس لم يحاول محاولة جديدة في التوفيق بين المصريين
وانما خیرهم بين الخضوع للرأى الجديد والاضطهاد ويساورنا الشك
في أن الشعب المصرى كان يفهم أن هناك محاولة للتوفيق يدلنا على
ذلك أن بنيامين لم يستشر في الأمر وأنه في عقب وصول قبرس في
سنة ٦٣١ ثم تلت ذلك فترة الاضطهاد المعروفة باسم الاضطهاد الأعظم
والتي استمرت زهاء عشر سنوات حتى سنة ٦٤١ لاقى فيها الاقباط
بلاء شديدا ونضرب لك أمثلة من ذلك الاضطهاد لتعرف إلى أى حد
وصل ذكر بتلر أن ميناس أخا بنيامين كان ممن عذبوا ثم قتل غرقا
وكان تعذيبه بأن أفدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه حتى سال
دهنه من جانبيه إلى الأرض كما ذكر سويرس ولكنه لم ينزعزع عن
إيمانه فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس مملوء بالرمل وحمل في البحر
حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ثم عرضوا عليه ثلاث
مرات أن يؤمن بما أقره مجلس خلقه ونيافيفلت من الموت فرفض في
كل مرة فموا به في البحر فمات غرقا هذا مثل من أمثلة كثيرة ذكرها بتلر
أدناه السجن وأقصاها التعذيب والضرب ، وكان السعى حثيثا غير
منقطع وراء بنيامين ولكنهم لم يعثروا عليه إذ كان يهرب متنقلا من
دير إلى آخر على أن فريقا من القبط لم يستطيعوا الهجرة والهرب
نخضعوا لما شاء قبرس منهم - وكان من بين من دخلوا في المذهب الجديد
جماعة من الأساقفة منهم اسقف نيقموس وأسقف الفيوم وليس عجيبا
أن يخضع هؤلاء لما طلب قبرس فقد كانت كل قوى البلاد تحت يده

وكانت كتائب جيش الرومان تروح وتغدو في الاسكندرية وغيرها
 رهن اشارته ذلك لأن هرقل ارتكب خطأ كبيرا بأن ولى قيرس مع
 بطرقة الاسكندرية الروحية حكم مصر الزمينة أيضا وكانت النتيجة
 أن أصبحت قوى الكنيسة وبجانها قوى الدولة من جند وموظفين
 تحت تصرفه ورهن اشارته ، وقد زاد عدد الجند والموظفين بعد الفتح
 الفارسي زيادة كبيرة فكان قيرس يلجأ إلى حاميات البلاد للاستعانة
 بها بعد أن لم يثمر اضطهاده للبطارقة خارج الاسكندرية - ولقد فكر
 جماعة من الأقباط في التأمير بحياة قيرس والى كمن المؤامرة كشفت
 وأوقع بالتآمرين شتى ألوان العذاب من قتل وتقطيع أيد وغير ذلك .
 دون أن يكون هناك استجواب أو شئ يشبه القضاء - ولقد أثار
 هذا الاضطهاد مسألة قديمة كانت نائمة وهي مسألة الدين أو الوطنية
 ولكن الأقباط اختاروا الأولى لأن الثانية كانت مستحيلة في ذلك
 الجو الذي كانوا يعيشون فيه ولا شك أنه قد ترامى إلى أهل مصر
 من الشام وغيرها أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم ولعلهم
 قد خطر بقلوبهم أن الخضوع للمسلمين قد يخفف بعض آلامهم وأن
 نير المسلمين قد يكون أخف حملا من نير الملك الأصيل في دين
 المسيح وهو هرقل - قال بقلر - إن سيف قيرس قد قطع آخر ما كان
 يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء وذلك لسكثرة ملاقوه
 في السنوات العشر من الظلم الذي نزل بهم إلى حضيض من الشقاء
 لا أمل معه قرأوا في مجيء المسلمين نازل أرسلها الله لينتقم لهم بها

من ظالمهم ، وناقش بتلر بعد ذلك المسئولية في ذلك وعلى من تقع
أعلى هرقل وكانت نوياه في القضاء على اختلاف المذاهب بنيله أم على
قيرس الذي لجأ إلى العسف باديء ذي بدء ولم يلجأ إلى وسيلة سواه
وانتهى به الأمر إلى تحميل الاثنين عبء هذه المسئولية وإلى أنهما
بعملهما هذا مهد السبيل للفتح العربي .

الباب الثالث

الفتح العربي

(١) مراجعنا في تاريخ ذلك الفتح :

(١) لسنا نعدو جانب الحقيقة إذا قررنا أن تاريخ الفتح العربي
لمصر هو أشق موضوع يتعرض له الكاتب في التاريخ وهو أقل مواضع
التاريخ الاسلامي مادة وأكثرها اختلاطاً واضطراباً وخلافاً وتناقضاً
بين المؤرخين بل لعل هذه الفترة من تاريخ مصر العام أكثر ظلاماً
وحلمة من فترات الشطر الأخير من تاريخ مصر القديم وهي تكاد
تصل في غموضها واضطرابها إلى الفترة التي سبقت غزو الهكسوس
وحكمهم لمصر - ولو أن الأمر كان يقف عند حد الأخبار القليلة التي
وصلت إلينا عن تاريخ الفتح لهان الأمر ولكن الخلاف الواسع بين
المصادر الاسلامية في حوادث الفتح وتواريخه والخلاف بين المصادر
الاسلامية والمصادر اليونانية من ناحية والمصادر القبطية من ناحية
أخرى يجعل المعالج لهذا التاريخ يسير على غير هدى كالضارب في

صحراء واسعة في ليل شديد الحرارة .. والمصادر التي نحاول الاعتماد عليها في تدوين هذه الفترة تنقسم الى أربعة أقسام :

ا- المراجع الاسلامية

ب- المراجع الرومانية

ج- المراجع القبطية

د- المراجع الحديثة

وستبدي في الفقرات التالية رأينا في كل من هذه المراجع ثم نعالج بعد ذلك تاريخ الفتح في ضوء ما يمكن أن يوفق بين هذه المتناقضات ومخرج بنا مما يشبه الخرافة الكاذبة الى التاريخ الحقيقي .

ا- فلما المراجع الاسلامية فانه مما يحز في النفس أن نرى التحقيق

الليق والتفصيل الشامل بوجهه المؤرخون المسلمون الى تاريخ الفتح القارسي بينما فتوح الروم وبخاصة فتح مصر لا يلقى عشر معشار تلك العناية فابن الأثير مثلا وهو من عمدنا في التاريخ الاسلامي يذكر قصة الفتح المصري في صحيفتين اثنتين بينما يفرده للقادسية وأيامها الصفحات الطوال ، وهو لم يعن حتى في هذا الجزء القليل الذي كتبه عن فتح مصر ، إلا بتمحيص نقطة واحدة هي أن مصر فتحت قبل عام الرمادة ، لأن عمرا حمل الطعام في بحر القلزم من مصر الى المدينة وأما ما عدا ذلك فانك تلقى خاطا في الأسماء والتواريخ . ولم يزد الطبري مثلا على ما كتبه من بعده ابن الأثير إلا قليلا مما لا طائل نحته . ولعلنا

م ٣ - مصر الاسلامية

أول كتاب أفرد في تاريخ مصر هو كتاب ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ المسمى فتوح مصر وأعمالها وهو كتاب صغير التاريخ الحقيقي فيه يضيع الى جانب الخرافة الكثيرة .

وهناك كتاب اسمه فتوح مصر والاسكندرية ينسب خطأ الى الواقدي المتوفى سنة ٨٢٣ م وقد طبعته مطبعة ليدن وهو في مجموعة سلسلة من الخاط وخرافات .

وأما فتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٨٩٢ م فهو أغزر مادة وقد عقد المؤلف فيه لتاريخ الفتح فصلين - أحدهما عنوانه فتوح مصر والمغرب - والآخر عنوانه فتح الاسكندرية ، وقد اعتمدنا على بعض ما كتبه :

ولابن عبد الحكم المتوفى سنة ٨٧٠ م كتاب لم نطلع عليه ولا كنا قرأنا الكثير مما نقل عنه في المقرئى والسيوطى وغيرها . وقد نقل عن هذا المؤرخ كثير من المؤرخين الأجانب أيضا وابن عبد الحكم يخطأ في كتابه هذا فمصر الخليل بأخبار التاريخ .

وما قيل عن هؤلاء المؤرخين الاسلاميين يمكن أن يقال عن غيرهم كابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ و كلسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ وياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وأبو الفدا المتوفى سنة ٧٣٥ هـ وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٧ م فإن كل هؤلاء لم يعنوا بتمحيص تاريخ مصر بل اكتفى المتأخر منهم بأن نقل عن المتقدم على أن هناك جماعة من المؤرخين المسلمين المتأخرين قد عنوا عناية أكثر بالتاريخ المصرى

ونخص بالذكر من هؤلاء المقرئى المتوفى سنة ١٤٤١م فان كتابه
الخطط والآثار أثر نفيس من آثار العمل المتصل فى جمع الأخبار وإن
كنا لانستطيع أن نصف عملة بالدقة والتحرى .

ونذكر أيضا أبا المحاسن المشهور بابن تغر بردى المتوفى سنة ١٤٦٩م
فان كتابه المسمى النجوم الزاهرة الذى يقع فى أربعة عشر جزءا
كتاب قيم فى التاريخ المصرى بلا شك ولكن الجزء الأول منه الذى
يهمنا الآن لأنه يعالج تاريخ مصر من أول الفتح الى سنة ١٤٦ هـ لا يعدو
فى كتابته ما ذكره المقرئى وغيره وإنما يمتاز بأنه يذكر حوادث
التاريخ الإسلامى للمعاصرة لسنوات حكم الولاة العرب .

وكتاب الولاة والقضاء للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ لا يتعرض
لذكر الفتح وحوادثه ، إنما يؤرخ للولاة مبتدئا بعمر بن العاص ،
وكتابه فى هذا الموضوع قليلة جدا اذا جردناها من الاسناد .

والسيوطى المتوفى سنة ١٥٥٠م كتاب عنوانه حسن المحاضرة
فى أخبار مصر والقاهرة اعتمد فى معظم ما كتبه وبخاصة فى الفترة
التي نعالجها على ما ورد فى المقرئى .

تلك هى أمهات الكتب الإسلامية التى وقعت فى أيدينا قبل
معالجة هذا الموضوع وليس فى واحد منها غناء ولستنا نعدو الحقيقة
إذا قلنا إن ما فيها من الخلط فى التواريخ والحوادث والأشخاص قد
زاد الأمر تعقيدا فى نظرنا .

ب - المراجع الرومانية :

لم يخدم مؤرخو الروم تاريخ الفتح السامى والمصرى كما خدم مؤرخو
الفرس تاريخ الفتح الفارسى ولسنا نجد تعليلاً لهذا إلا أن الروم قد
انقطع ما بينهم وبين مستعمراتهم فى الشام ومصر بعد طرد العرب
لهم فلم يريدوا أن يدونوا تاريخ فترة غير مجيدة فى تاريخهم على عكس
الفرس الذين وإن كانوا قد فقدوا استقلالهم إلا أنهم استعاضوا به
الاسلام الذى اعتنقوه وقامت لهم فيما بعد دول فيه ، وأشهر مؤرخى
الروم الذين يعتمد عليهم المؤرخون المحدثون هو تيوفانىس الذى تتبع
فى كتاباته تاريخ الفتوح الاسلامية وإن كان قد أخطأ فى فهم بعض
الحوادث .

ج - المراجع القبطية :

وأشهر المؤرخين القبط على الإطلاق هو يوحنا النيقمىوسى وهو
أسقف قبطى يرجح أنه عاصر زمن الفتح ودون تاريخه فى أواخر القرن
السابع وقد كتب بعض ذلك التاريخ باللغة القبطية والبعض الآخر
باللغة اليونانية والظاهر أنه قد نقل إلى العربية فى زمن متقدم ومن
هذه النسخة العربية وجدت ترجمة ابثوية ترجمت إلى بعض اللغات
الأوربية ، وهذه الترجمة ذات أهمية عظيمة وقد اعتمد عليها المؤرخ
بتلر فى تحقيق كثير من الحوادث والمتصفح لهذه الترجمة يرى أن
يوحنا لم يكن يعنى بتعاقب الحوادث ، وهى تختلف فى كثير من

الحوادث ما نقل عنها فيما بعد في المراجع العربية على أن كل هذا لا يققد هذه البرديات قيمتها .

وقد حصل أيضا على عدة برديات باللغة القبطية تتضمن حياة بعض البطارقة الذين عاشوا قبيل الفتح وبعده وهى تفيدنا كثيرا فى التاريخ لحوادث ذلك العصر .

د - المراجع الحديثة :

وننتقل الآن إلى الكلام عن المراجع الحديثة وهى قسمان

المراجع العربية ، والمراجع الأوربية :

وأشهر المراجع العربية هو تاريخ مصر الحديث لجورج زيدان وعلى الرغم من أن الأستاذ جورجى زيدان كتب تحت عنوان كتابه من الفتح الإسلامى إلى الآن إلا أنه لم يفصل الكلام التفصيل الذى كان ينتظر على الفتح وكان اعتماده إلى حد كبير على ما ورد فى المراجع العربية وقد أدى به ذلك إلى الوقوع فى بعض الهنات التاريخية التى أثبتت التحريات الحديثة خطأها على أن الجزء الذى كتبه يعتبر إلى حد كبير استعراضا سريعا لا بأس به لتاريخ الفتح الإسلامى .

ولم يتعرض الأستاذ الخضرى بك فى محاضراته لتاريخ الأمم الإسلامية لفتح مصر اذ قال انه يرجى تفاصيل فتحها الى الوقت الذى يتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا .

وقد وضع الدكتور حسن ابراهيم رسالة مفصلة عن تاريخ عمرو ابن العاص تناول فيها بطبيعة الحال الفتح العربى لمصر بعد أن شرح

حالة مصر قبله ووصف الفتح وما تلاه من الحوادث الى آخر ولاية
عمرو الثانية .

ولا نذكر غير هذا من الكتب الحديثة العربية ممن أفرد الكلام
عن الفتح العربي إلا ما كان لتاريخ الاسلام العام والفتح العربي فيه
فصلا من القدر . أما المراجع الأوربية فأهمها على الإطلاق الكتاب
الذي ألفه الدكتور الفرد بتلر في سنة ١٩٠٢ م وجعل عنوانه : (الفتح
العربي لمصر والسنوات الثلاثين الأخيرة للحكم الروماني) . وقد نقل
هذا الكتاب إلى العربية منذ ست سنوات الأستاذ محمد فريد أبو
حديد ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد سد هذا الكتاب
بتأليفه وتعريبه فراغا كان واسعا في تاريخ العرب وأكمل النقص الذي
خلفه المؤرخون المسلمون في تاريخ مصر بوجه خاص . وقد عاني بتلر
في وضع كتابه هذا مشقة كبيرة وما زال يحقق ويدقق ويستخلص
الحقائق من بين مئات المراجع العربية والأجنبية حتى كوز فكرته
عن موضوع الفتح العربي التي ضمنها هذا السفر وخالف فيها جل ما
استقرت عليه الآراء في موضوع الفتح العربي ويمتاز عمله بأن ضم إلى
الكتاب بضعة ملاحق ليجلو بها الحقيقة عن بعض المسائل الخلافية
التي تشعبت فيها أوجه النظر كشخصية المقوقس وتواريخ الفتح
الفارسي والعربي وغيرها والبطارقة وغير ذلك من المسائل الشديدة
الاتصال بتاريخ الفتح :

وسنعمد إلى حد كبير في بحثنا هذا على ما كتبه ذلك المستشرق العظيم :

ومن الكتب الهامة في تاريخ مصر الإسلامية الكتاب الذي كتبه الأستاذ استانلي لين بول وجعل عنوانه (تاريخ مصر في العصور الوسطى) وعالج فيه تاريخ مصر من أول الفتح العربي إلى آخر عصر المماليك الشراكسة سنة ١٥١٧ م ولا يهملنا من هذا الكتاب إلا الفصل الأول الذي عالج فيه تاريخ الفتح والفصل الثاني الذي عقده لمصر من لدن الفتح إلى بدء عصر أحمد بن طولون .

وسنعمد أيضا في بعض ما نذكره في هذا التاريخ على ما ورد في كتب المستشرقين التي نخص بالذكر فيها .

١ - كتاب الخلافة للسير وليم موير

٢ - كتاب الدولة العربية ومسقوطها للعلامة ولهوزن

٣ - تاريخ العرب للأستاذ فليب حطى . وخلاصة تاريخ العرب للعلامة سيديو .

٤ - وما ورد عن الفتح العربي لمصر في تاريخ المؤرخين للعالم ، وتاريخ كنبرج للعصر الوسطى وكل هؤلاء المؤرخون الأجانب مختلفون في وجهات نظرهم مما لا داعي للإطالة فيه الآن اكتفاء بوروده في موضوعة من هذا البحث .

(٢) التفكير في فتح مصر

يرجع التفكير في فتح مصر إلى عمرو بن العاص الذي تكاد تجمع

والروايات على زيارته لمصر في الجاهلية وليسنا نعرف في أى سنة تم ذلك
 ولكن السيوطي وغيره يذكر نقلا عن ابن عبد الحكم أن عمرو قدم
 إلى بيت المقدس لتجارة في نفر من قريش وإذا هم بشمار من شمامسة
 الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في
 بعض جبالها يسبح وكان عمرو يرمى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد
 أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمر فاستسقى فشقاه
 عمرو من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكان إلى جانب
 الشماس حيث نام حفرة خرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فترزع
 لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد انجاء الله
 منها. فقال لعمرو: ما هذه؟ فأخبره الخبر. فقبل رأس عمرو
 وسأله عن سبب مجيئه قال: قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل
 من تجارنا فقال الشماس: كم ترجو أن نصيب من تجارتك قال ما شئت
 به بعيرا قال الشماس: كم دية أحدكم بينكم؟ قال عمرو مائة من الإبل
 قال الشماس: كم تكون من الدنانير قال عمرو ألف دينار. ووعد
 الشماس عمرا بأن يعطيه ديتين إن هو صحبه إلى الاسكندرية وقبل عمرو
 العرض بعد أن أخبر أصحابه بأنه سيفيب عنهم شهرا. ووصل عمرو
 إلى الاسكندرية فرأى من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال
 واخير ما أعجبه. قال المسعودي ووافق دخول عمرو الاسكندرية
 عيد فيها عظيما مجتمع فيها ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب
 يتراعى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكرامهم وفيما اختبروا من تلك

الأكرة أن من وقعت في كفه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما
 قدم عمرو الأسكندرية أكرمه الشماس الاكرام كله وكساه ثوب
 ديباج ألبسه أياه وجاس عمرو والشماس إياه في ذلك المجلس حيث
 يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكرامهم فرمى بها رجل فأقبلت تهوى
 حتى وقعت في كم عمرو فتمحبوا من ذلك وقلوا ما كذبنا هذه الأكرة
 قط إلا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا هذا لا يكون أبدا ثم
 مشى الشماس في أهل الأسكندرية وأعلمهم أن عمرا أحياء مزينين
 وأنه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا
 ودفعوها إلى عمرو فانطلق هو والاعرابي الذي صحبه في هذه الرحلة
 وبعت معهما الشماس دليلا ورسولا وأكرمهما حتى عادا إلى فلسطين
 فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل
 البلاد وأكثرها مالا - اه بتصرف عن السيوطي .

تلك هي القصة التي رواها باختلاف قليل مؤرخو العرب وهي إن
 صنعت في شيء فهي لم تصح إلا في زيارة عمرو لمصر أما أكرة الذهب
 وما قيل إن الملوك كانوا يترامون بها فهي واضحة البطلان ولم يشر
 إليها أحد من مؤرخي الروم .

وكان عمرو بن العاص أحد القواد الأربعة الذين سيرهم الخليفة
 أبو بكر لفتح الشام وقد كاف بفتح فلسطين وقد وفق في الاستيلاء
 على معظم بلادها إلى بلدة بيت المقدس نفسها والرملة وقيصريه فانها
 استسلمت عليه ثم تجمع القواد في البرموك وبعد النصر غزم عمرو على معاودة

السكره على بيت المقدس فحرب الحصار عليها بعد أن هرب قائد
حاميتها أرتطبور إلى مصر فاستمر بطريق المدينة في المفاوضات حتى
أعيتة الحيل و طال الحصار قرغب في الصلح على شريطة أن يكون
المتولى لعقده الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فكتب اليه عمرو بذلك
وسار الخليفة إلى الشام بعد أن بعث للقواد أن يقابلوه عند الجابية
وجاء عمر فتسلم المدينة وكان تسليمها إيذانا بتسلم فلسطين كلها ولم
يرد عمرو بعد سقوط قيصريه وخضوع فلسطين أن يظل بلا عمل
حتى لا تخمد شهرته - ومثله في ذلك مثل نابليون بونابرت في اقتراحه
على حكومة الإدارة فتح مصر بعد انتصاراته في إيطاليا اتصل
عمرو بالخليفة أثناء وجوده بفلسطين وأخذ يلحف عليه في ضرورة
فتح مصر والخليفة يبدى ترددا.

٣ مبررات الفتح

سواء أكان عمرو مخلصا في اقتراحه هذا على الخليفة يقصد
مصلحة المسلمين أم كان يقصد خدمة أغراضه الشخصية فما لا شك
فيه أن فتح مصر كان ضروريا للأسباب الآتية -
١ أن هذا الفتح كان طبيعيا لأن مصر هي الامتداد الجنوبي
لفلسطين.

٢ أنه لصياغة المستعمرات الجديدة لابد من فتح مصر خشية أن
يتخذها الرومان قاعدة لاسترداد فلسطين والشام.

٣ أن الاستيلاء على ما في مصر من سفن وغور يساعد على

إخضاع مدن الشام الشمالية الواقعة على البحر التي كانت لا تزال تقاوم الفتح العربي .

٤ « أن هذا الفتح سهل ولا يكلف العرب أرواحا ولا أموالا كثيرة لأن مصر غير محصنة ولأن الشعب المصري إن لم يساءد الغزاة فلن يقاومهم بسبب كراهيته للروم لاضطهادهم

٥ « أن غنى مصر وبخاصة ما فيها من غلال يغري بالفتح ويعوض ما يحتمل في سبيله من خسائر

٦ « أن هذا الفتح يمنع الجنود الرومانية الآبقة من الشام من اللجوء إلى مصر

من ذلك وغيره يتبين أن فكرة فتح مصر كانت فكرة سليمة بصرف النظر عن بواعثها على أن هذه الفكرة وعرة رغم مبرراتها التي ذكرناها لم تلق تعضيدا صريحا من الخليفة ولعل ذلك يرجع إلى ما يأتي :-

١ « أن الخليفة كان يعتقد أن أقدم العرب لم تثبت بعد في الأقاليم المفتوحة فكان يخشى إذا بعثت قوتهم فوق مساحة واسعة أن تكون النتيجة ضعف العرب

٢ « أن الخليفة ربما كان يعتقد أن الفتح لن يكون بالسهولة التي صورها عمرو وأن مصر على غناها المشهور لا يمكن أن تترك دون محصنين كما يقول

٣ « أنه ربما كان يتشكك في نوايا عمرو

٤٤ وأخيرا يمكننا أن نقول إن معلومات الخليفة عن السياسة الخارجية وبخاصة لدولة الروم كانت أقل من معلومات عمرو .
 من أجل ذلك تحير الخليفة وقد تساوت أمامه كفة المسألة فلا هو يريد أن يحرم المساميين الخير الذي يصوره عمرو ولا هو يريد أن يعرضهم للتهلكة كما كان يصور له وجدانه ، ولم يكن بجوار الخليفة نفر من الصحابة يستشيرهم في المعضلة وأخيرا نحت الحاح عمرو والخافه سمح له وهو في طريقه الى المدينة أن يتحرك الى مصر على رأس أربعة آلاف رجل أو ثلاثة آلاف وخمسمائة كما ورد في بعض الروايات ولكي يرضى الخليفة ضميره الحساس علق السماح بالغزو على وصول كتاب منه الى عمرو بالرأى النهائي
 ٤٥ بدى الغزو وفتح الفرما ،

لم يكذب يظفر عمرو بموافقة الخليفة المعلقة على الغزو حتى صمم على التحرك الى مصر من فلسطين في آخر السنة الثامنة عشرة للهجرة في طريقه الى مصر مجتازا المنطقة المعتادة التي كانت تتحرك دائما فيها الجيوش الداخلة الى مصر أو الخارجة منها - ولم يكن الجيش الذى خرج به عمرو كبيرا إذ كان عددهم دون الاربعة آلاف والخروج يمثل هذا العدد لفتح بلاد كمصر يعتبر مخاطرة بلا شك في نظر الرجل الحصيف وانضم الى عمرو قبل ان يدخل مصر جماعات من البدو لكي يكون لهم نصيب فى الغنيمة ولم يكذب يشرف على حدود مصر حتى كانت عدة جيشه أربعة آلاف ولعل هذا يفسر لنا

اختلف في عدد جيش عمرو بين ٣٥٠٠: ٤٠٠٠ آلاف فان الذين خرجوا معه كانوا ٣٥٠٠ رجلا والذين انضموا اليه من البدو كانوا نصف ألف وقد استغرق هذا بلا شك وقتا كان الخليفة قد وصل فيه إلى المدينة وأفضى إلى الصحابة بأذنه لعمرو بالسير إلى مصر فأقر بعضهم الأمر ولكن عثمان بن عفان ذكر للخليفة أن عمرا فيه جرأة واقدام وحب للامارة وأنه يخشى أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلاكه رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا فندم عمر بن الخطاب على أذنه لعمرو وكتب اليه « إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك وإن كنت دخلت فامض لوقتك »

وينكر بعض المؤرخين قصة هذا الكتاب ويرى بعض المستشرقين أنها ما اخترعة ويستدلون على ذلك بأن وصول عمر إلى المدينة وإرساله الكتاب إلى عمرو وهو على حدود مصر يستغرق وقتا أكثر من الوقت الذي يستنفده عمرو من غزاة إلى العريش ولكن هذا الاعتراض يزول إذا عرفنا أن الخليفة لم يبق بفلسطين طويلا إلا وبينما عقد المعاهدة مع أهل بيت المقدس وأن عمرا لم يتحرك إلى مصر إلا بعد فتح قيصرية .

ومع ما يكن من أمر فان كتاب الخليفة أدرك عمرا وهو برفح ودلته فطنته على أن الخليفة قد يأمره بالعودة فراوخ رسول الخليفة ولم يتسلم الكتاب منه إلا في منتصف المسافة فيما بين رفح والعريش وسأل عن المكان فعرف أنه من أرض مصر وعند ذلك تلقى رسول

الخليفة وفض كتابه ثم أخذ يواصل السير إلى أن وصل إلى العريش في ١٠ ذى الحجة سنة ١٨ هـ الموافقة ١٤ ديسمبر سنة ٦٣٩ م فحضر حوله حصارا لم تلبث أن سامت بعده - ثم غادر العرب العريش وما حوله من بساتين النخيل ويمموا شطر الغرب في طريقهم إلى القرما وكانت الطريق بعد العريش تبعد عن البحر قليلا وفيها بعض العينون والقرى التي طالما شاهدت منذ فجر التاريخ في الحقب الخالية خروج الغزاة ودخولهم كما شاهدت مقدم ابراهيم ويوسف ويعقوب وأسرة المسيح والتجار والحجاج وكان آخر ما شاهده هـ - هذه الطريق جيوش الفرس في غزوتهم الأخيرة لمصر.

وليس تمت شك في أن قبرس كان يعلم أن الهجوم على مصر لا بد سيتلوا الهجوم على الشام وقد كان في طوقه أن يحشد عشرة آلاف من الجنود الرومانية ليجعلهم في حصن القرما التي هي أول حصن هام يعترض الفاتح لمصر ولكن قبرس لم يفعل شيئا أكبر من أنه حفر خندقا حول جزء من حصن بابليون واصلاح قليل من الحصون الأخرى - ولقد حدا هـ - هذا الاهمال من جانب قبرس باعتباره الحاكم المدني لمصر إلى مقاله بعض المؤرخين «مثل تيوفانيس اليوناني» إلى القول بأن قبرس كان يفكر في ذلك الوقت في عقد محالفة مع العرب ضد الرومان يضمن بها لنفسه حكم الاسكندرية في ظل الحكم العربي.

انحدر العرب من هـ - هذا الطريق التاريخي إلى الشمال الغربي إلى مدينة القرما «اسمها بالقبطية فرمون» «وباليونانية بلوز» أو بلوزين

وهي مدينة تبعد عن البحر نحو ميل ونصف وعلى مقربة منها يصب
 في البحر أحد فروع النيل القديمة المسمى بالفرع البلوذي وتعتبر هذه
 المدينة مفتاح مصر من الشرق وقد كان في مكتبة الروم أن يقاوموا
 العرب على قلة عددهم وعلى افتقارهم إلى آلات الحصار التي لم يكونوا
 يحملون منها شيئا لو أنهم كانوا قد قوّوا حامية المدينة أو رجموا
 حصونها التي دكها الفرس أثناء غزوتهم الأخيرة ولكن
 شيئا من ذلك لم يحدث وكان هذا الاهل أول غلطة كبرى
 ارتكبها الروم من بين سلسلة الأخطاء التي سنشير إلى كل
 منها في مكانها من هذا الفتح - وصل العرب إلى الفرما في
 أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٣٩م فحربوا حصارا حولها استمر هذا
 الحصار شهرا في بعض الروايات وشهرين في رواية أخرى - ولسنا
 نعلم عدد من كان من الجنود في المدينة ولكن بعض الروايات تذكر
 أن هؤلاء الجنود كانوا يخرجون لمقتلة العرب خارج الأسوار ثم يفرون
 إلى المدينة وفي إحدى المرات تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن
 يقتحموه وكان ذلك في النصف الأول من شهر يناير سنة ٦٤٠م وهذا
 يقابل أوائل العام التاسع عشر للهجرة ، وأهل سقوط المدينة بهذه
 الطريقة التي ذكرناها هو الذي حدا ببعض المؤرخين كالمقريزي وابن
 تغريبردي بأن يقولوا أن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا العمرو أعوانا
 وأن أسقف القبط يقال له أبو ميامين «لعله يقصد بنيامين» كتب إلى
 قبط مصر يخبرهم أنه لا يكون للروم ديلة وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم

ببلى عمرو وكل ذلك بطبيعة الحال غير صحيح إذ لو أن القبسطاء عدوا
العرب لما هدم العرب حصون المدينة وأحرقوا سفنها وبسقوط الفرما
فى أيدي العرب أصبح الطريق الذى يربطهم بفلسطين وبلاد العرب
آمنا وضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة ولم يترك عمرو
حامية فى الفرما اكتفاء بتهديم الأسوار كما بينا .

« ٥ - فتح شرق الدلتا »

بعد الاستيلاء على الفرما تحرك عمرو إلى الجنوب الغربى حتى
وصل إلى موضع فى برزخ السويس مكانه مدينة القنطرة الحالية ولزم
العرب جانب الصحراء متجهين إلى ناحية مدينة الصالحية ومخالفين فى
ذلك أكثر من عدام من فاتحى مصر الذين كانوا يسلكون سبيل
العرب ليسقطوا مدن الدلتا الشمالية وكانت فكرة عمرو من سلوك
ذلك السبيل أن تكون الصحراء حصنه الذى يابجا إليه وقت الخطر
تنفيذا للأوامر التى كان الخليفة قد أصدرها للقواد عند فتح العراق
والشام هذا من جهة ومن جهة أخرى لكي يتجنب عبور القنوات ،
وفروع النيل إذ كان جيشه كله من الفرسان ولم يكن عندهم من
وماء - بل بناء القناطر على الترع والانهار شىء وما زال يضرب فى
الصحراء مخترقا وادى الطميلات عند القل الكبير حتى أشرف على
مدينة بلبيس وهناك خرجت طلائع الروم تقب محبى العرب من
الصحراء ولا تدافعهم الا بالامر الخفيف حتى أشرفوا على بلبيس وكان
جيش عمرو قد انضم اليه عدد من يد وهذه الصحراء الشرقية وهناك

في ظاهر هذه المدينة خرج اليهم أرطبيون « الذي يسميه العرب
 أرطبون » والذي كان حاكما على بيت المقدس وفر عند حصارها كما
 أشرنا إلى ذلك آنفا ومعم على مناجزتهم مناجزة أخيرة انتهت بنفسه
 وانتصار العرب وكانت قد جرت بينهم وبين القبط بعض المفاوضات
 للتسليم ولكنهما لم تسفر عن نجاح - وقد قتل من جيش العرب عدد
 ليس بالقليل ولكن خسارة الروم كانت أشد إذ تذكر بعض الروايات
 أنهم خسروا في بلبس ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير - وقبل أن
 ننقل من بلبس يجب أن نشير هنا إلى قصة أرمانوسة ابنة المقوقس
 فقد ذكر بعض المؤرخين كابن اسحق والواقدي قصتها وأنها أسرت
 في بلبس فاحب عمرو ملاطفة المقوقس استجلابا لوده فسير اليه ابنته
 مكرمة في جميع مالها فسر أبوها كثيرا بقدمها - قال بئر - ولا
 حاجة بي إلى اضياع الوقت في تفنيد هذه القصة فان مجرد العلم بان
 المقوقس كان بطريق الاسكندرية كاف لضحدها - وقد كتب أحد
 القسيس المسمى بوشتر روايته التاريخية المسماة أرمانوسة المصرية
 وذكر فيها أن أرمانوسة كانت في طريقها إلى قيصرية لتزف إلى
 قسطنطين ابن هرقل فلما علمت أن قيصرية حاصرها العرب عادت
 إلى مصر بمن معها من الخدم والمال فما وصلت بلبس حتى جاءها
 جيوش عمرو وحاصرتها الخ .

بعد سقوط بلبس لم يبق بين العرب وبين رأس الدلتا إلا مسيرة

م - ٤ - مصر الإسلامية

يوم فسار عمرو جنوباً ومصر بمدينة هليوبوليس حتى وصل إلى قرية
 صغيرة على النيل تقع على الشمال من حصن بابليون تسمى أم دنين -
 وقد ذكر المقرئ أنها كانت المقس وموضع المقس اليوم هو الموضع
 الذي فيه حديقة الازبكية وكان يمر به خليج - اخان - هنبا أدرك
 الروم الخطر وقد رأوا جنود العرب تريد أن تفتح هذا الحصن الذي
 يحاوره مرفأ على النيل فيه سفن كثيرة وكن أمير الجيوش الرومانية
 في مصر رجلاً عاجز في الحرب يسمى تيودور لم يتبين الخطر
 إلا في هذا الوقت وكان يظن أن الفتح العربي لا يعدوا أن يكون
 غارة من غارات البدو - وكانت في أم دنين حامية قوية
 ولذلك كان في استطاعة الروم أن يخرجوا من حصن بابليون
 في الجنوب ليقاوموا جيش العرب ويعودوا إلى الحصن آمنين وراهم
 أسواره - مضت على العرب بضعة أسابيع في مناوشات وقتال بسيط
 مع الروم لم يؤذ فيه الروم كثيراً ولكن اجهض فيه العرب وصاروا
 في قلة لا تمكنهم من إتمام الفتح الذي جاؤوا من أجله عند ذلك كتب
 عمرو إلى الخليفة يستنجد به وعده بمداده بعد أن شرح له الموقف تماماً
 ولكن ماذا عساه أن يصنع حتى يحجى المدد ويفكر في حصار بابليون
 الحصار المستمر لقد كانت كل الظروف الآن في جانب الروم وكان في
 استطاعتهم أن يقضوا على جيش عمرو وأن يوقفوا هذا الفتح العربي -
 نهائياً ولكنهم لم يفعلوا بل تركوا عمرو بن العاص يعبر نهر النيل من
 الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية ليستغل جنوده ويحصل على مئونة

جندته وعلوفة خيله ريثما يأتيه المدد الذي بعث يطلبه من الخليفة وهما
 نستطيع أن نعتبر هذا السماح لعمرو بالعبور إلى الضفة الغربية للنيل
 الغلطة الثانية الكبرى التي ارتكبها الرومان - ولم يتم هذا العبور بطبيعة
 الحال إلا بعد أن نجح العرب في الاستيلاء على أم دنين والاستفادة بما
 فيها من مراكب بعد أن كلفهم ذلك غناء شديدا كان الروم يظنون أنه
 سيستنفذ كل قواهم فيرجعوا من حيث أتوا .

معركة هليوبوليس

عبر عمرو النهر عند أم دنين كما بينا ثم أخذ يسلك سبيله إلى
 الجنوب على الضفة النيل الغربية فر في طريقه بمدينة منفيس التي كانت
 عاصمة مصرية قديمة ثم اضمحل شأنها بعد تأسيس مدينة الاسكندرية
 ولما نعلم عن الطريق الذي سلكوه إلى الفيوم شيئا والراجح لدينا
 أن عمرا كان لا يقصد من عمله هذا فتحا إنما كان يقصد إشغال جندته
 ريثما يصل المدد لحصار حصن بابليون - ولقد حاول حاكم اقليم الفيوم
 أن يصد تقدم العرب فوضع الجنود عند تغور الفيوم التي يدخل إلى
 الاقليم منها وأقام ربيعة عند اللاهوني ليرصد العدو وقد أرسل إليه
 مصرية من الفرسان والرماة لم يقولوا العرب على مقاومتها فعدلوا إلى جانب
 الصحراء وجعلوا يستاقون ما لا قوا من النعم وما زالوا كذلك حتى بلغوا
 مدينة البهنسة ففتحوها عنوة وذكر يوحنا النيقوسي أنهم قتلوا من
 وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال ولكن هذا يخالف ما نعرفه عن

العرب - واستطاع عمرو أن يوقع بقائد الجند في الفيوم عند قرية ابويط من قرى بني سويف فقتله ومن معه جميعا ولما بلغت أخبار هذه التكةبة القائد العام تيودور أعول وبكى وصمم على أن يحشد جيشا أكثر مما حشد في بابلين وبعث بجزء منها إلى البهنسة ليحارب العرب ولكنها لم تنجح في القضاء على قوتهم على الرغم من أن العرب قد فشلوا في فتح مدينة الفيوم.

وأحس عمرو أن الوقت قد حان لعودته إلى الضفة الشرقية ولعله قد ترامت إليه أخبار بقرب وصول المدد الذي بعث به الخليفة لقب دكان مسير عمرو إلى الفيوم في أوائل شهر مايو سنة ٦٤٠ م وغنم العرب في الأسابيع التي قضاها هناك غنما كثيرا بقدر ما خسر الروم في تلك الأسابيع التي أضاعوها ضياعا وهناك في أوائل شهر يونيو سنة ٦٤٠ م وصلت أول فرقة من الأمداد الذي بعث بها الخليفة وكانت عدتها أربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام بن عمة النبي ثم جاءت على إثرها كتيبتان كل منهما تقرب من أربعة آلاف رجل فكان جميع من جاء من الأمداد نحو اثني عشر ألفا وعسكر الكل على مقربة من مدينة هليوبوليس « عين شمس » وكانت ثالث الاخطاء الكبرى التي ارتكبها الرومان أن سمحوا لعمرو بالعبور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية والاتصال بهنداء المدد الذي رفع جيشه إلى أربعة أمثاله وكان في استطاعة تيودور أن يحول دون عبور عمرو وبخاصة لأنهم كانوا قد استردوا أم دين. وقد كان

في طوق الروم أيضا أن يعطلوا عمرا إذا لم يستطيعوا القضاء عليه في الضفة الغربية حتى يرتفع النيل فيتعذر عليه العبور ولكنه عبر إما عنوة أو على غرة منهم من موضع من الشمال من أم دنين ، وأن يتجه صوب عين شمس التي عرف أن المدد يعسكر فيها .

ولسنا في حاجة إلى أن نذكر هنا أن الهدف الأعلى لهذه الجيوش العربية كان حصن بابلين ولكن يجب أن نذكر أن المدد لم يستحضروا معهم آلات حصار وعلى ذلك انحصر تفكير العرب في محاولة استدراج الروم إلى خارج أسوار حصن بابلين وأنس تيودور من نفسه القوة نخرج بمن معه من الجند ، وسار بهم نحو عين شمس التي كان معسكر العرب على بضعة أميال منها وكان معه ثيودسيوس حاكم إقليم الفيوم وأنستاسيوس حاكم الاسكندرية ، وكانا على الخيالة ، أما بقية الجمع وكانوا رجالا أو حملة رماح وأسرت ريثة العرب فحملت إلى عمرو ما عزمت عليه الروم فسار هو من هليوبوليس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم ، وأرسل تحت جناح الليل كتيبتين أحدهما إلى أم دنين والأخرى إلى مكان واقع إلى الشرق في الموضع الذي تقع فيه قلعة القاهرة اليوم وأوصاهما عمرو بأن ينقضوا على مؤخرة جيش الروم إذا منحت لهم الفرصة ، ولم يكن عند الروم علم بمكيدة عمرو بل رأوا أنه كان يسير إليهم في جمعه آتيا من هليوبوليس للقاءهم ويرجع لدينا أن هذا اللقاء تم في منتصف الطريق بين المعسكرين أو في مكان ما من العباسية الحالية ، وكان كل من الفريقين يعلم أن هذه الموقعة

متحدد مكانه من مصر تماماً لذلك قاتل كل قتال المستميت وبيننا المعركة
 في أشدها إذا باحدى الكتبتين وكان عليهما خارجة بن حذافة تنقض
 من ناحية التل انتضااض العاصفة على مؤخرة جيش الروم فوق ع
 الاضطراب في دوفهم وعموا وجـ وهم شطر أم دنين ، وهناك
 خرجت لهم الكتيبة الثانية فأحيط بهم من كل مكان ، وانقلبت الفوضى
 إلى كارثة لا حد لها ، وأخذوا يولون الأدباء ليفلتوا من سيوف العرب
 البتارة ، واستطاع قليل منهم أن يدرك الحصن جريا على الأرض كما
 تمكن فريق آخر أكثر من هؤلاء من الاندفاع إلى النهر وركوب
 بعض الزوارق التي حملتهم إلى الحصن ، ولسنا في حاجة إلى أن نقول
 إن عددا لا يستهان به من الروم قتل في هذه المعركة ، وعلى أثر ذلك
 أعاد العرب الاستيلاء على أم دنين فقتلوا معظم من كان فيها ولم يفلت
 الا ثلثمائة ، وهؤلاء لجأوا إلى حصن بابليون وغلقوا وراءهم الأبواب
 ولكن عندما اتصل بهم ما أصاب الروم من قتل دب في قلوبهم الفرع
 وركبوا النهر إلى نيقوس - وليس في الأخبار ذكر لعدد القتلى من
 الجانبين ، ولكن من المعروف أن القائد العام تيودور والحاكمين
 لنستاسيوس وثيودسيوس أفلتا من القتل وقد تجمع من بقى من الروم
 بعد المعركة في حصن بابليون فكونوا حامية تستطيع الدفاع عنه ولكن
 نتائج ذلك الانتصار أفادت العرب فائدة كبيرة فقد أصبحت مدينة
 مصر التي كانت حتى هذه الساءة يحميها الجيش الروماني في بابليون
 تحت رحمتهم «ومدينة مصر» وكان يطلق عليها اسم منفيس في بعض

الاحيان تقع الى الجنوب من حصن بابليون قبالة مدينة منقيس القديمة
 الواقعة على الضفة الغربية للنيل وكانت هذه الأخيرة أطلالا متد
 اهللت بعد تأسيس الاسكندرية
 بذلك أصبح العرب يملكون المنطقة الواقعة الى شمال الحصن
 والمنطقة الواقعة جنوبه فنقلوا معسكرهم من هليوبوليس الى
 الناحية الشمالية والناحية الشرقية من الحصن وسط الخدائق والكنائس
 في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم القسطاظ وقد أصبح جيش
 العرب كافيا لحصار بابليون بعد اذ دمر الجيش الروماني كتوة محاربة
 ولم يبق منهم إلا القلول التي لاذت إلى أسوار الحصن وهامت على
 وجهها مذعورة في بلاد الدلتا . وكذلك كان لاتتصار العرب نتيجة
 أخرى في الفيوم إذ هجرتها حاميتها وخرج دومنتيوس إلى أبويط
 ومن ثم ركب النهر الى نيقوس دون أن يخبر أهل الفيوم باخلائه له
 ووصلت أخبار هرب دومنتيوس إلى عمرو فبعث كتيبة احتلت الفيوم
 وقتلت من أهلها خلقا كثيرا وهنا نقف لنقرر أن الرومان اذ كانوا
 الغلطة الرابعة الكبرى في سماخهم لعمرو بالهيمنة على النيل قبل موسم
 الفيضان وكانت سيادة العرب على النهر ذات أثر فعال في انتصاراتهم
 ولو أن العرب كانوا مهرة في ركوب البحار لاستطاعوا أن يتعقبوا
 بنجاح جواهر الأبقين من الروم الذين كانوا يفرون من الجنوب ليعتصموا
 بحصن نيقوس واكتفى عمرو بأن أمر نجائب الخيل بأن تجوس خلال
 البلاد بعدد وقعة عين شمس كما أمر حاكم دلاص أن يمه المسلمين بالشفق

لم ينتقلوا بها من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي وبعد أن تم لعمر
 فتح الفيوم في النصف الثاني من شهر يوليو سنة ٦٤٠ م بدأ يبعث
 بعونه إلى فتح الدلتا في شهر أغسطس سنة ٦٤٠ م قبل أن يحول
 فيضان النيل بينه وبين ذلك وبدأ الاقباط يساعدون المسلمين فأقاموا
 لهم قنطرة على التربة عند قليوب وتمكن العرب من فتح إثريب
 ومنوف ولكن مدينة نيقموس « على الفرع الغربي للنيل » استعصت
 على العرب لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة وكان فتحها
 يتطلب أن يحاصرها العرب حصارا طويلا إذ أن العرب اضطروا إلى
 العودة إلى حصن بابليون قبل أن يعم الفيضان . وقد ألفت حركات
 العرب في الدلتا وفي مصر الوسطى العرب في نفوس الناس فترك عدد
 كبير منهم أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع ومتاع وخرجوا أفواجا
 إلى الاسكندرية ولم يلحق بهم عمرو للسبب الذي بيناه وهو علو الماء
 علوا سريعا في آخر شهر أغسطس فأصبحت البلاد لا يمكن السير
 فيها وكان الظرف يتطلب أن يضرب عمرو حصاره حول حصن بابليون
 فإذا أخضعه كان من السهل عليه أن يأخذ ما شاء من الجنود ويضرب
 أي حصار مهما طال على أي مدينة في الدلتا وعلى الاسكندرية ذاتها
 وقبل أن تتسلكم على حصن بابليون وحصاره بجدر بنا أن نصف
 مدينة هليوبوليس التي عقدنا هذا الفصل لوقعتها .

هليوبوليس لفظ يوناني معناه مدينة الشمس وقد أطلقه اليونان
 على المدينة أون التي كانت عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة من مقاطعات

معمر السفلى وكانت تقع على مقربة من مدينة المطرية الحديثة وكانت
 في العصور الفرعونية مقر عبادة الاله رع أو إله الشمس ولا شك أن
 اليونان أخذوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها هليوبوليس كما احتفظ
 العرب بهذا المعنى أيضا فجعلوا اسم الموضع عين شمس وقد كان في هذه
 المدينة في العصور الفرعونية جامعة كبيرة لدراسة الدين المصري القديم
 والفلسفة ظلت مزدهرة عدة قرون . وقد روى أنه في عهد الأسرة
 العشرين كان طلبة العلم والأساتذة في جامعة هليوبوليس يعدون
 بالآلاف وتلقى العلم فيها جماعة من فلاسفة اليونان نخص بالذكر منهم
 أفلاطون ولما زار استرايون المدينة في سنة ٢٤ ق م كان الناس يدلونه
 على المواضع التي كان يتلقى فيها أفلاطون العلم من قبل وكان بالمدينة
 معبد ضخم لم يبق من آثاره الآن إلا مسألة واحدة ترجع إلى عهد
 السيرتسن الأول في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وبدأ تدهور
 المدينة عند ما نقل بطليموس الثاني الكهنة والعلماء منها إلى الاسكندرية
 وكانت هليوبوليس تضم جالية كبيرة من اليهود وفي التوراة أن يوسف
 عليه السلام تزوج من ابنة فوطيفار أحد كهنة عين شمس وقد غيرت
 صروف الزمان المدينة وجرت الحصارات والحروب ذيل العفاء على
 أكثر معابدها وتماثيلها ولما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها القديم
 إلا قليل من الأسوار المهتمة ، وتماثيل لأبي الهول قد دفن نصفها ،
 تحت التراب ، وعمود واحد هو القائم إلى الآن والمعروف باسم مسألة
 عين شمس

«٨» حصن بابليون

تدل الآثار التي بقيت من حصن بابليون على أن هذا الحصن لاقى من عوامل التخريب في السنوات الأولى من هذا القرن أكثر مما لاقى في طوال القرون التي سبقتة — ولستنا نعلم على وجه التحقيق مبدأ بناء هذا الحصن ولكن الرأي الراجح لدى المؤرخين أنه بنى على يد الامبراطور الروماني تراجان في العام المتمم للمائة من الميلاد والظاهر أن تراجان بنى هذا الحصن على انقراض حصن قديم يذكر بعض المؤرخين أنه بنى في عهد نابوخذ نصر (بختنصر) عند غزوه لمصر ولقد ذكر استرابول الذي زار مصر في القرن الاول قبل الميلاد أنه رأى حصن قويا نهى من الصخر على الضفة الشرقية للنيل وقل إن السبب في تسميته يرجع إلى جماعة من أسرى بابل كانت مقيمة فيه — وروى ديودور الصقلي أن ملك مصر جاء بجماعة من أسرى بابل واسكنهم في قصر فأطلقوا على القصر اسم المدينة التي جاءوا منها — وذكر المؤرخ يوسفيوس اليهودي أن الحصن لم يبن الا في أيام غزوة الفرس لمصر في حكم الملك قبيز — وذكر ابن بطريق أن أخوس وهو إرتخشيارش أو خوس هو الذي بنى الحصن ، وروى مؤرخون آخرون غير هذه اضر بنا صفحا عنها ومهما يكن من أمر فإن البناء الذي شهده العرب أيام الفتح كان دون نزاع بناء رومانيا وهو التي لا تزال بعض آثاره باقية إلى يومنا هذا .

وقد سبب اسم بابليون ارتباكا كبيرا لمؤرخي العرب فسيأه بعض

مؤرخيهم حصن باب إليون ، أو باب إليونة ، وذكر المؤرخ بتلر أن اسم الحصن باللغة القبطية في وقت الفتح باباون . آن . خيمي ومعناه بابليون مصر فكان من السهل تحريفه في اللغة الوريية لأن أول جزء منه « باب » ويمكن أن يفهم أن الجزء الثاني مضاف إلى الأول ولعل العرب وقعوا في هذا الخطأ إذ تصوروا أن باب أون ، مضافة إلى باب وأون هي عين شمس ، الاسم العربي « هليوبوليس » وهو بعيد عن الصواب كما رأينا ويسمى بعض المؤرخين هذا الحصن باسم قصر الشمع ويرى بتلر أن لفظ الشمع قد يكون تحريفا لكلمة القبطية خيمي ، ولكن المقرئ يذكّر تعليلا آخر إذ يقول أن هذا العصر كان يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر وذلك أنه إذا دخلت الشمس في برج من البروج أوقد في تلك الليلة الشمع على رأس ذلك القصر فيعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس انتقلت من البرج الذي كانت فيه إلى برج آخر غيره . ولعل هذا الخلط وقع فيه المقرئ وغيره من المؤرخين نتيجة لما كان معروفا من أن هذا الحصن كان فيه بيت نار على شاطئ النيل الشرقى منذ أيام الفرس ، وموضع هذا الحصن الآن فيما يسمى اليوم مصر القديمة وقد استطاع علماء الآثار أن يعرفوا بعد الكشف عن بعض أبقاض الحصن وصفا اجمالي لما كان عليه نلخصه فيما يلي : —

كان سمك أسوار الحصن ثمانية عشر قدما وكان بناؤه من الآجر والحجارة طيبة من هذه وطيبة من تلك وكان محيط الأسوار على

شكل مربع غير منتظم وتتخلل أسواره عدة أبراج بارزة بينها مسافات غير متساوية وأهمها ما كان في الجانبين الجنوبي والشرقي ولم يكن في الجانب الغربي أبراج ولعل ذلك كان اكتفاء بتحصين النهر له لأن النيل كان يجري تحت أسواره وكانت السفن ترسو تحتها وقد بقيت كذلك إلى أيام الفتح العربي وكان للحصن بابان مهمان أحدهما ويعرف بالباب الروماني كان في الجدار الغربي وكان يحيط بهذا الباب صرحان لا تزال كنيسة ماري جرجس قائمة فوق الصرح الشالى منهما والصرح مستدير يبلغ قطره نحو ثلاثين مترا وأما الباب الثانى فكان إلى الجنوب يحيط به برجان عظيمان ، وفي أيام الفتح العربي كان يخرج مرفأ من النيل إلى أمام هذين البرجين ، وهذا الباب هو المعروف بباب الحديد وفوق مدخله كانت كنيسة المعلقة ، ولعله سمي بالباب الحديدى لأنه كان مصنوعا من الحديد أو الخشب المصقح بالحديد ، وكانت السفن ترسو أمام هذا الباب في المرفأ أو الخندق الخارج من النيل ، وكان على هذا الباب جسر يتحرك إلى أعلى فاذا شده من في الحصن منع وصول الناس إلى أسواره ، وقد وجد المنتقبون أيضا آثار عدة كنائس وبيع للمسيحيين واليهود في داخل أسوار الحصن الذى لم يستطع المؤرخون تقدير مساحته. وقد كان يلجأ رهبان النصارى في أيام ضعف الحكومة الرومانية إلى أمثال هذه الكنائس والأديرة ليحموا أنفسهم من غارات بدو الصحراء الذين كانوا يعتدون عليهم ولا تستطيع الحكومة صدهم .

والى الغرب من الحصن كانت تقع جزيرة الروضة فى وسط النيل وكانت ذات حصون قوية تزيد فى خطر الحصن الحربى وتسيطر على النهر ، وكان يصلها بالحصن جسر من المراكب واذا فاض النيل تحول الحصن الى جزيرة فى وسط الماء ، أما الاقليم الواقع الى شرق الحصن فقد كان فى وقت الفتح مزارع فسيحة والى الشمال من الحصن كانت توجد الحدائق وحوائط الكرم ثم تمتد الى الشمال والى الشرق فيما يلى الحصن سلسلة من الكنائس والأديرة بعضها داخل فى حدود القاهرة الحالية وبعضها خارج عنه - والراجح أن ارتفاع أسوار الحصن كان لا يتجاوز الستين قدما ؟

وكان الحصن فى وقت الفتح العربى مقرا لحامية الروم كما كان الحال طوال العصر الرومانى وكان للروم حاميات أهمها حامية بابليون وحامية الاسكندرية ، والآن وقد ألمنا بوصف عام للحصن وتاريخه ننتقل الى محاصرة العرب له .

٨ - حصار حصن نابليون وفتحه

كان سقوط حصن بابليون فى يد العرب نقطة فاصلة فى تاريخ غزوهم لمصر إذ بسقوطه وقع فى أيديهم نصف إن لم يكن أكثر من نصف البلاد ومن أجل ذلك يرى أن نأتى بنبد مما كتبه المؤرخون عن سقوط ذلك الحصن ثم نقف على ذلك بالوصف الشامل الذى يمكن استخلاصه من أقوالهم .

قال السيوطي ؛ لما أتى المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على النضر رجل من الروم يقال له الأعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو إلى صاحب الحصن فتناظرا في شيء مما هم فيه فقتل أعرج وأستشير أصحابي وقد كان صاحب الحصن أوصى الذي كان على البساب إذا مر به عمرو أن يلقى عليه صخرة فيقتله فر عمرو وهو يريد الخروج رجل من العرب فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو إلى صاحب الحصن فقال إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي حتى يسمع منك مثل ما سمعت فقال العليج في نفسه قتل جماعة أحب إلى من قتل واحد فأرسل إلى الذي كان أمسه به بقتل عمرو لا يتعرض له رجاء أن يأتي بأصحابه فيقتلهم فخرج عمرو فلما ابطأ عليه الفتح قال الزبير إني أهب نفسي لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع ساهما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعا فاشعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجمع الناس على السلم حتى نهام عمرو وخوفوا من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر من معه وأجابه المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعا فهربوا فعمد ابن الزبير وأصمى ساهيه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن اهـ

ص ٤٧ ج ١ السيوطي .

ولا تختلف رواية المؤرخين الآخرين المسلمين عن رواية المسعودي

إلا في قليل من الزيادة أو النقص أما جوهر الرواية فهو وبذكر
ابن الأثير أن الزبير بن العوام لما ارتقى الأسوار وأحس بذلك أهل
الحصن فتحوا الباب لعمر وخرجوا إليه مصالحين فقبل منهم ونزل
الزبير عليهم عنوة حتى خرج على عمرو من الباب معهم ف عقدوا صلحا
بعد ما أشرفوا على الهلك فأجروا ما أخذوا عنوة مجرى الصلح وصاروا
ذمة وأجروا من دخل في صلحهم من الروم والنوبة مجرى أهل مصر
ومن اختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه وابن الأثير هنا يتوسط
بين مؤرخي العرب الذي يقول بعضهم إن مصر فتحت عنوة بينما
يقول الآخرون إنها فتحت صلحا أما المناظرة التي أشار إليها السيوطي
في وصفه السالف فقد فصلها ابن تغربردي في النجوم الزاهرة ونحن
نلخصها فيما يلي :

أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم ولجتم في بلادنا وألحجتم
على قتالنا وأتتم عصبة يسيرة وقد أظلمتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم
العدة والسلاح وقد أحاط بكم النيل وأتتم أسارى في أيدينا فابعثوا
إلينا رجلا منكم نسمع من كلامهم علما نرضى نحن وهم على شئ مفرد
عليهم عمرو إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال الدخول في
الاسلام ؛ أو دفع الجزية ، أو المسيف ، وألح المقوقس على الرسل فبعث
إليه عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان أسود فكرهه
المقوقس ثم اضطر الى سماعه فعرض عليه أن يصلحهم على أن يفرض
لكل رجل دينارين ، وللأمير مائة دينار وللخليفة مائة ألف ورفض

عبادة العرض وأصر على الشروط الثلاثة الأولى وهنا تراجع المقوقس وعرض على الأقباط أن يجيبوا القوم الى خصلة من الخصال الثلاث ، فرفضوا الاستماع للمقوقس وبعد ذلك استؤنف القتال .

ونعود الآن إلى أقوال بعض المؤرخين الأجانب في الفتح :

قال موير في كتابه العظيم عن الخلافة ما نصه : بعدهذا الانتصار « يقصد معركة هليوبوليس » وقعت مدينة مصر « منفيس » التي كان فيها الحصن المعروف ببابليون في يد عمرو وما كان ثمة مانع من أن يحتاج العرب كل مصر السفلى لو لم تخرج الطبيعة لمساعدة المنهزمين فان نهر النيل الذي كان يفيض مبكرا في شهر يونيه في تلكم الأيام كان يعطى في منتصف أغسطس كل أرض الدلتا ويحولها إلى بحيرات شاسعة ويجعل القيام بحركات عسكرية مستحيلا وأراد عمرو أن يستفيد من فترة الفيضان التي تظل قائمة حتى نهاية السنة ف ضرب حصارا حول حصن بابليون الذي كان منيعا وبدأ الحصار في شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ واستمر ثمانية شهور . وأخذ العرب الحصن صلحا وعنوة كما كان الحال في دمشق ويديما كان الزبير باستماتته وشجاعته قد نجح في تسور الأسوار كان وفد من الحامية قد حصل على شروط الصلح من عمرو كما ذكر ذلك الطبرى - ووقع الحصن في يد العرب في يوم الاثنين ٩ ابريل سنة ٦٤١ م وكان الامبراطور هرقل قد مات أثناء حصار الحصن في ١١ فبراير من نفس السنة « بخاط مؤرخو العرب بين هليوبوليس وبابليون ولكن يتلوه يفسر سبب هذا الخلط

بفسير العرب ، اب اليون بباب عين شمس ، اه ص ١٦٢ موير
أما الأستاذ استانلي لين بول فقد ذكر في تاريخه لمصر في العصور الوسطى
ما يأتى :-

كان من المستحيل أن يقوم العرب بهجوم في فصل الفيضان
واضطر الجيش العربي أن يظل دون عمل حتى ينتهى الفيضان في شهر
سبتمبر وكان أقصى ما عليهم أن يفعلوه وأن يجعلوا الاتصال بينهم وبين
بلاد العرب وأن يظلوا ومن الممكن أن يكون قد حدث قبل ذلك
أن الرومان قد حاولوا أن يتلافوا الكارثة بأن يدفعوا للعرب مالا «وهذا
هو الذى يدل عليه كتابات المؤرخين البيزنطيين» كما كانت عاداتهم في
الأيام السابقة عند ما كانوا يدفعون رشاً إلى بدو سيناء وفلسطين
ليتقوا أذمهم ولا يكتفهم لم يستطيعوا على كل حال أن يثبثوا عزمهم
على الاستيلاء على بابليون فكان حصارها أمراً لا مناص منه ولم يكن
لدى العرب خبرة بالحصار ولا آلات تساعد عليه وبخاصة إذا كان
الحصن قوى الجدران كما كان الحال في حصن بابليون وكان أقصى ما عليهم
أن يفعلوه أن يطوقوا الحصن من نواحيه ولكن هذا التطويق نفسه
لم يكن تاماً إذ أن أهل الحصن كانوا يستطيعون الاتصال من الناحية
الغربية بأهل الروضة وغيرهم والظاهر أن الحصار بدأ في أوائل أكتوبر
إذ يقال إنه استمر ستة شهور وأخيراً سلمت الحامية في ٩ إبريل
سنة ٦٤١ م

ذلك مبلغ ما وصلنا إلى تحقيقه ولكن يخيل إلينا أن أمورا كثيرة حدثت في صيف سنة ٦٤٠ م يتحدث عنها المؤرخون العرب الذين هم مراجعنا الوحيدون في تاريخ هذه الفترة ولكن أقوالهم مختلفة ومتناقضة « قال بترل لم يستطع مؤرخ أن يخرج من هذا التيه الذي بناه كتاب العرب حول الحقائق الرئيسية للفتح ولا أن يجد مفتاحا لغوامضه والكتاب الحالي - اين بول - لا يدعي أنه وجد المفتاح الذي يفتح به مغاليق هذه الناحية » وإنا لنقرأ أنه قبل معركة هليوبوليس حدث أن حاكم مصر الذي يلقبونه بذلك اللقب الغريب المقوقس والذي قل عنه الدكتور بترل قيرش بطريق الاسكندرية القوي قد بدأ المفاوضات مع العرب بفكرة عقد صلح وأنه أرسل مطران مصر مع أسقف آخر إلى معسكر عمرو في فترة هدنة فأحسن عمرو لقاءهم وقيل إنه أظهر أمامهم ميولا وديه وتكلم عن عاطفة النبي محمد نحو القبط باعتبار أنهم شعب هاجر الذين قد تسلسل هو من ابنهم « وفرق هذا فان مارية احدى اماء محمد ﷺ ذات الشعر المجعد كانت قبطية أهداها في سنة ٦٢٨ م حاكم مصرى يسميه المؤرخون العرب قبل الأوان أيضا باسم المقوقس » وعرض عليهم الخصال التي كان يعرضها المسلمون عادة أمام خصومهم وهي الاسلام أو دفع الجزية أو السيف والظاهر أن المفاوضين كانوا يميلون إلى دفع الجزية ولكن قائد الحامية مع حامية الروم رفضوا بقتانوا قطعوا الهدنة بخروجهم الفاشل على العرب ولما واصل العرب حملتهم ورأى الروم أنهم لم يفيدوا شيئا جددوا أمر

المفاوضات مرة أخرى والظاهر أن الذي عجل في تحديد ما هو تسليق الزبير وما كان من أمر استيلائه على باب يحتمل أن يكون خارج الحصن وقد انزعج المقوقس لهذا فعبر النهر مع جماعة من زعماء المصريين إلى جزيرة الروضة وقطع وراءه الجسر الذي كان يربط بين الحصن وبينها وربما كان يقصد من ذلك إلى أن يتمكن من المفاوضة دون تدخل من الحامية والذي يمكن أن نستنتج من هذه القصة المعقدة أنه كان في مصر حزبان متعارضان أحدهما دعاة الصلح وهذا يمثل مشاعر المصريين والآخر الحامية الرومانية التي صممت على المقاومة إلى النهاية ويذكر المؤرخون أن المفاوضات الثانية تمت في أثناء ارتفاع النيل أو بعبارة أخرى حوالي سبتمبر أو أكتوبر عندما كان الفيضان يعوق حركات العرب وفي الوقت الذي بدأ فيه تطويق بابليون

ويذكر المؤرخون من العرب روايات مختلفة عن تبادل السفراء ولكن يظهر أنها كانت باطلة بأجمعها إنما النتيجة النهائية قد استقرت بلا شك عن معاهدة مصر، وقد حفظ لنا الطبري هذه الوثيقة في نص لا نعرف إن كان هو النص الأصلي أم لا وهي تتضمن أمنا شاملا لأهل مصر في أشخاصهم ودينهم وكنائسهم وصلبانهم وأراضيهم ومياههم على شريطة أن يدفعوا الجزية بعد هبوط النيل وبنسبة تتناسب مع مقدار الفيضان وقد أشهد عليها الله ورسوله والخليفة أمير المؤمنين وكافة المسامين وقع على الوثيقة الزبير وأولاده كشهود -

كانت المعاهدة مع أهل مصر وقد تضمنت حق الاختيار للرومان

البقاء في مصر ولكنها لا تشير إلى حصن بابليون وقد يساورنا الشك في أن الجند لم يوافقوا عليها وعلى كل حال فإن أمر التسليم كان مرهونا بموافقة الامبراطور - وتدل المراجع اليونانية « ذكر نيقفور وبيوري في كتابه الدولة الرومانية المتأخرة أن هناك فكرة غير واضحة تستنتج من روايات اليونان على أن قيصر وافق في تاريخ متقدم على دفع الجزية للعرب » على أن هرقل رفض الموافقة واستدعى قيصر إلى القسطنطينية ليبرر مسلكه ووبخه على تصرفه وطرده وعلى ذلك ظلت المعاهدة معلقة واستمر تطويق الحصن طول فصل الشتاء وفقد أهل الحامية الأمل إذ لم تأت اليهم نجدة من الأسكندرية وجاء موت هرقل في فبراير وما تبعه من فوضى فانقطع الأمل تماما في مساعدة القسطنطينية وعلى ذلك سامت الحامية المنهكة في ٩ أبريل سنة ٦٤١ وركبت النهر إلى مدينة نيقوس اه كلام لين بول .

وورد في كتاب تاريخ المؤرخين للعالم في الجزء الثامن تحت عنوان فتح مصر ما نصه :-

هناك على الضفة الغربية للنيل على مقربة من شرق الأهرام وإلى الجنوب من رأس الدلتا كانت تقع مدينة منف التي كان يحيطها بياض ١٥٠ فيرلونج « الفيرلونج ٨ ميل أو ٢٢ ياردة » والتي كانت تتمثل فيها عظمة الملوك القدماء وقد طالبت مدة الحصار إلى سبعة أشهر ولكن الغزاة المقادير ضايقهم وهددهم فيضان النيل وكان هجومهم الأخير جريشا وناجحا فعبروا الخندق الذي كان محصنا بحسك الحديد ووضعوا سلاهم

ثم دخلوا الحصن وهم يصيحون النصر لله فطردوا بقايا الروم في
مراكبهم إلى جزيرة الروضة ثم أشير على الغزاة فيما بعد أن يحفروا
خليجا من هذه البقعة إلى شبه جزيرة العرب وقد هجرت آثار منف
وجولت خيام العرب إلى مساكن دائمة وبورك أول مسجد بأن صلي
فيه ثمانون من صحابة محمد فقامت مدينة في معسكرهم على الضفة
الشرقية للنيل . . . اه المؤلف .

وورد في كتاب تاريخ العرب للأستاذ فيليب حطى الذي صدر
أخيرا سنة ١٩٣٧ م ما نصه .

حاصر العرب الحصن ولم يكن معهم آلات هندسية أو ميكانيكية
تمكنهم من اخضاع الحصن ولكن قيرص الخائن فكر في أن يبعد
العرب بالمال ولكن مساعيه ذهبت هباء وعرضت الخصال الثلاثة
المعتادة وهي الاسلام ، أو الجزية ، أو السيف وإن الكلمات التالية
التي قالها رسل قيرص تعطينا فكرة عن الأثر الذي تركه هؤلاء العرب
رأينا قوما الموت إلى أحدهم أحب من الحياة والتواضع أحب
إليهم من الرفعة ليس لأحدهم في الدنيا رغبة وإنما جلوسهم على التراب
وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفقهم من وضعهم
ولا السيد من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد
يفعلون أطرافهم بالساء ويخشعون في صلاتهم اه عن ابن عبد الحكم
وبعد أن طلب قيرص وفدا يقابله في الروضة ليتفاوض
معه على الصلح فوجيء إذ وجد وفدا على رأسه رجل أسود

هو عبادة بن الصامت الذي عرض الخصال الثلاث فوافق قيس على دفع الجزية وأسرع إلى الاسكندرية ليمعث إلى الامبراطور بالشروط فلم تعجب هرقل واتهم نائبه الديني بالخيانة ونفاه وفي هذا الوقت كان حصار بابليون مستمر وعند نهاية سبعة شهور نجح الزبير وبعض أصحابه في ردم جزء من الخندق وتسلق الجدران على سلم ومفاجأة الحارس والحامية وقد رنت صيحة الله أكبر الحربية وتردد صداها في أنحاء الحصن في ٦ ابريل اهـ

من ثمايا هذه المراجع التي لخصنا أقوالها أو ترجمنا عنها يمكننا أن نذكر الحقائق التالية عن حصن بابليون وسقوطه بنى الامبراطور تراجان هذا الحصن حوالي سنة ١٠٠ م وكان في وقت فتح العرب حصينا جدا إذ كان يحصن به النيل من الجهة الغربية وتحميه قناة أو خندق دائم من الجنوب ومن ناحية الشمال والشرق كانت تحف به الخنادق والخقول - ولم يعن الرومان بتحسين الناحيتين الشماليّة والغربية لأنهم كانوا يتوقعون الهجمات في أول الأمر من جهة النيل وإلى الغرب من الحصن كانت تقوم جزيرة الروضة الحصينة يربطها بالحصن جسر من الزوارق .

وفي سبتمبر سنة ٦٤٠ م حفر قيرص قناة في الشمال والشرق من الحصن أراد بذلك أن يتحول الحصن إلى جزيرة أثناء الفيضان وكان على عمرو أن يهجم على الحصن دون أن يسيطر على الهر أو تكون معه آلات صالحة للحصار وكانت حامية الحصن تبلغ خمسة آلاف جندي

يضاف اليهم عدد من اللاجئين وكان الطعام في الحصن كافيا ولكن
المشاجرات المعتادة ظلت قائمة بين الطوائف حتى أثناء الحصار كما
كانت قبله ومما زاد الطين بلة أن قبرص أخذت يواصل اضطهاده للاقباط
القتلائ في داخل الحصن كما لو كان لا يزال حاكما مصر وقد خلق وجود
قبرص داخل الحصن هوة سحيقة بين الحاكين والمحكومين. وحوالي
اكتوبر سنة ٦٤٠ م جمع قبرص كل الموظفين الذين يثق فيهم وأفهمهم
الخطر المحدق وعدم الفائدة من المقاومة وكان قبرص فصيحاً فاستطاع
بفضاحته أن يقنع القوم أنهم قد هزموا في الحرب وأنهم على فرض
أنهم انتصروا فإن الشطر الأكبر من مصر قد ضاع وخير لهم أن
يتفاهموا مع العدو خير لهم من أن يضيعوا مصر بأسرها على
الامبرطورية وكسان أصلح مكان للمفاوضة مع العرب بعيدا عن رقابة
المخلصين من الروم للامبرطورية هو جزيرة الروضة فانتقل قبرص
الى هناك بعد أن قطع جسر الزوارق وراءه وكان قبرص لا يزال يعتقد
شأن كل الرومان إذ ذاك أن الغزو العربي لا يغدوا أن يكون غارة كبيرة
ومن أجل ذلك عرض عليهم شروطه هذه السخيفة إذ قال لهم إنهم
أصبحوا أسرى في أيدي الرومان وأنه في مصلحتهم أن يحووا البلاد
وكان رد العرب عليه هو عرض الخصال الثلاث فلما اسلام فيتفون
على قدم المساواة مع المسلمين وإما دفع الجزية عن يد وهم صاغرون فإن
رفضوا هذه وتلك فليس إلا الحرب حتى يحكم الله .
وخشى قبرص أن يتغالي العرب في مطالبهم بعد ذلك إذا انخفض

ماء النهر وتمكن العرب من التحرك بحرية في ربوع البلاد فقبل الشرط الثاني وقاسى كثيرا في محاولة اقناع كبار الضباط بقبول دفع الجزية وكان جورج قائد جنود الحصن على رأس المعارضين وأبي جندالامبراطور الا القتال واستقر الأمر على هذا سريعا وكان قد قامت في أثناءه المفاوضات هدنة مدتها ثلاثة أيام فلم يكده ينتهى اليوم الثالث حتى أخذ الروم يخرجون الى العرب يفاجئونهم فتنبه العرب وذكثروا على الروم وتراجع الروم فدخلوا الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة أما المقوقس فانه ما زال عند رأيه من الاذعان للعرب واتخذ من هزيمة الروم في خرجتهم السابقة وسيلة للتمديد بهم لمخالفته في الرأى وكانت النتيجة في صالح العرب وقوى جانب قيرص ووافق العرب على أن يمتنع القتل حتى تأتى موافقة هرقل على الشروط - أما قيرص فانه أسرع الى الاسكندرية وبعث بكتاب الى هرقل يطلب اليه فيه ان يوافق على الصلح حتى يقي مصر شر الحرب ووبالهما وقد غضب الامبراطور غضبا شديدا ممتزجا بالحيرة لأن كتاب المقوقس لم يكن مبينا ان كان الصلح خاصا بتسليم بابلليون فقط أو تسليم مصر بما فيها الاسكندرية للعرب كما أنه لم يستطع أن يتبين من الكتاب ان كان الصلح يجعل العرب يرحلون عن البلاد بعد أخذ الجزية أم يبقون فيها وهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من الروم واسلامها الى العرب أم رشوة العرب لاجراجهم من البلاد - حار هرقل في أمره وحق له ان يحار ولم يجد مخلصا الا أن يبعث برسالة الى قيرص ليأبى على عجل

الى القسطنطينية ويشرح لامبراطور الأمر وكيف أن مائة الف
من الرومان لم يستطيعوا ان يتجاوزوا خمسة عشر الفاً من العرب -
وسافر قيصر الى القسطنطينية وكان لقاء عنيف بينهما وبين الامبراطور
الذى اتهم قيصر بالخيانة والخور ثم حكم عليه بانه مرتكب مجرم كافر
وعديد ثم أسلمه الى حاكم المدينة فشهده وأوقع به المهانة ثم نفاه من
البلاد طريدا .

وقد عرف العرب بخبر رفض الامبراطور للصلح وهم في حصار الحصن
قبل نهاية سنة ٦٤٠ م وأنهى بذلك عهد الهدنة واستؤنف القتال وكان
النيل عند ذلك يهبط سريعاً فتهبط بهبوطه المياه التي في الخندق وتخبو
مع هبوطها آمال من في الحصن وكان على الروم أن يدافعوا عن خط
طويل من الأسوار ولما فرغ الخندق من مائه استعاض الروم عنه بأن
رموا في قاعه حسك الحديد ثم ظهر الوباء وخيل إلى من في الحصن أن
شمس اخلاص غربت وان لا أمل في النجاة وسعى العرب من جانبيهم
إلى طم بعض أجزاء الخندق وهدم جوانبه حتى ينفذوا منه ولكن الحصار
الذى ضيقوا به على الحصن من جانب البر لم يكن ذا اثر من جانب النهر
ومضى الشتاء فقل خروج الروم من الحصن وقتلهم للمسلمين و كانوا
يفعلون ذلك في بعض الأحيان ويعودون بالفشل

ثم لاحت بارقة أمل للمحصورين ذلك أن تودور جمع جيشاً
في الدلتا وسار في النيل يقصد إنقاذ الحصن وترامى الخبر إلى عمرو فلم
يقم حتى يقبل عليه العدو بل ترك من جيشه جماعة عند الحصن وتوجه

على طول الفرع الشرقي في النيل حتى وصل إلى أثريب فعبهر النهر عندها ثم توجه إلى سمنود فبعث تيودور باثنين من قواده ليدافع عن المدينة والتقى الجمعان على كئب من سمنود ودارت معركة انهزم فيها المسلمون بعد أن كبدوا عدوهم خسائر جمة وعلى الرغم من انتصار تيودور فإنه لم يستفد شيئاً من ورائه ولم يبعث بجند إمداد الأهل الحصن وكان عليه قبل أن يصل إليه أن يحطم سلسلة الحصون التي أقامها العرب في بوصير وأثريب ومنوف

وفي مارس سنة ٦٤١ م أتت الأخبار بموت هرقل فيئست الحامية وعرف الروم بالأمر لما سمعوا تكبيراً عالياً في معسكر المسلمين وكان ما أصاب الروم من الانكسار وفقد الروح المعنوية لا يقل عما اعترف المسلمون من التحمس وقوة الروح المعنوية وأخذ العرب يتهيمون للهجوم الأخير فطموا جزء من الخندق حتى إذا كانت ليلة عيد الفصح الاثنين ١٦ أبريل سنة ٦٤١ م إذا بالزبير يضع سلماً على السور من الناحية الجنوبية فيتمسقه والسيوف في يده وإذا بالبطل العربي على رأس الحصن ومن ورائه بقية المتسلقة ولم تنفع في صدمهم جماهير من في داخل الحصن لأنهم مطروهم سهاما والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب فبنوا حائطا تعترض المشى فوق السور من جانبيه فحمل العرب السلم وأهبطوه إلى قلب الحصن ولو أن عزيمة الروم لم تحز لا استطاعوا أن يقضوا على هؤلاء ولكنهم بدل ذلك تجمع كبارهم في أو الصباح وسألوا عمرا الصلح وعرض بجورج قائد الحصن أن يسلم على أن

يأمن كل من هناك من الجند على انفسهم فقبل عمرو الصلح على الرغم
 من معارضة الزبير الذي كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة
 وكتب عمرو عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن في ثلاثة أيام
 وينزلوا بالنهر ويحملوا ما فيهم من القوت لبضعة أيام أما الحصن وما
 فيه من الذخائر والآلات الحربية فقد وقع في يد العرب وكانما أراد الروم
 أن يجعلوا آخر أيامهم في بابليون سودا على غيرهم كما كانت سودا
 عليهم فعمدوا إلى الأقباط الذين كانوا قد حبسوا في أول الحصار
 فجروهم على وجوههم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم أمرهم بذلك
 كبيرهم أودوقيانوس فليس عجباً أن نسمع هنا النيقويون يسميهم
 ويسميهم أعداء المسيح الذين فتنوا الناس عن إيمانهم فتنة لم يأت بمثلا
 عبدة الأوثان ولا الهج وأز فتح المساهين للحصن لم يكن إلا نقمة
 إلهية من الله على الروم جزاء ما فعلوا من الأفاعيل بالقبط

كذلك سقط حصن بابليون وبسقوطه فقد الرومان نصف إن لم
 يكن أكثر من نصف مصر كما قلنا في أول هذا الفصل وقبل أن
 نسير مع عمرو إلى الاسكندرية بجدر بنا أن ثبت هنا نقلا عن
 الجزء الرابع من الطبرى نص وثيقة الصلح وهي التي يسميها الطبرى
 صلح عين شمس وبجدر بنا قبل أن نورد نصها ان نشير إلى أن بلر كان
 يرى أولا أنها ليست إلا الصلح الخاص بالأسكندرية وانها سميّت صلح
 عين شمس خطأ ولكنه عاد فعدل أخيرا عن رأيه هذا في رسالة عنوانها
 «معاهدة مصر في كتاب «الطبرى» وسلم بضمحه ما ذهب اليه الطبرى

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر
 من الأمان على أنفسهم ومنقهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم
 ويحرم لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب
 وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت
 زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ما جرى لصوتهم فإن أبى أحد منهم
 أن يجيب رفع عنهم الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أتى بريئة وإن نقص نهرهم
 من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من
 الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار
 الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم
 أثلاثا في كل ثلاث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد
 الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمهم المؤمنين
 وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا
 على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة شهيد الزبير
 وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان اه ص ٢٢٩ ج ٤ الطبرى .

ويرى بطل أن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا
 حربيا ولم يكن عقدا سياسيا فقد رضى عمرو أن يدفع ثمنه له تأمين من
 كانوا فيه وخروجهم منه بغير أن يساموا أو يدفعوا الجزية وإنما دفع
 الجزية من بقى من أهل المدينة واذ كان هذا العهد لا يمس إلا مدينة
 مصر والحصن ، فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة ويخطئ من يقول
 إن القبط عامتهم دخلوا في عهد الصلح الذى كتبه عمرو عند فتح

بابلليون فان ذلك العهد إنما دخل فيه أهل ذلك الموضع على أن شروط ذلك الصالح نفسه عرضت فيما بعد على من كانوا على كسب من تلك الناحية ولسكن هذا الصلح أحدث في دولة الروم أثرا كبيرا مع أنه لم يكن الا صلاحا مقصورا على جماعة صغيرة وسبب ذلك مكانة منفيس أو بابلليون فانها وان لم يبق لها المحل الأول في البلاد كانت لا تزال تعتبر باب الصعيد واقيم الدلتا وكان حصنها منيعا اذا وقع في يد عدو دانه الصعيد وهابته بلاد الدلتا .

« ٩ » الزحف الى الاسكندرية

ثم يكاد يفرغ عمرو من فتح الحصن حتى أمر باقامة جسر السفن بين الحصن والروضة وبين الروضة والجيزة فوصل بذلك شاطئ النهر واستطاع أن يشرف على ما ينتقل فيه من السفن والبضائع ثم اتجه فكره أول ما اتجه بعد ذلك إلى الزحف على الاسكندرية قبل أن يعود النيل إلى فيضانه فأرسل إلى الخليفة بخبره بما كان من فتح ويستمرده ثم أقام على المدينة مساحة من المسلمين عليهم خارجه بن حذافة السهمي ثم امتطى عمرو صهوة جواده وسار على رأس جنوده متتبعا شاطئ الفرع الغربي للنيل لحصار مدينة نيقموس وكان الرومان قد جمعوا جنودهم في بعض مدائن كبيرة ولكن الشطر الأكبر والأهم من جندهم استعصم بالاسكندرية وكانت هناك حامية في مدينة نيقموس عليهم القائد دومنتيانوس الذي سبق أن فر من الفيوم أما مدينة نيقموس هذه فكانت مدينة ذات شأن عظيم وهي

تقع عند ملتقى ترعة الفرعونية بفرع رشيد ومكانها قريبة شديشير الحديثة على مسيرة يوم من بابلين وسامعتين من منوف وكانت منوف إذ ذاك في يد العرب وتعتبر نيقوس من المدن القديمة ذات الآثار الجليلة من أيام الفراعنة وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحي وهى محطة حربية هامة على الطريق من بابلين إلى الاسكندرية فلا بدع والحالة هذه أن يقف الروم فيها وقفة في وجه العرب - وقصد عمرو في سيره أن يكون على حافة الصحراء حتى لا يعوق خيله عائق من الترع الكثيرة التى تعترض مصر السفلى وكان أول اعتراض لقيه عند مدينة قديمة إلى الجنوب من نيقوس يسميها العرب الطرانة ومنها انبداً الطريق إلى أديرة القبط في صحراء لوبيا عند هذه المدينة المسماة أيضاً طنوط حدث اشتباك بين العرب والروم انتصر فيه العرب وأخذ عمرو يستأنف زحفه إلى مدينة نيقوس ولما كانت نيقوس تقع على الشاطئ الشرقى للنهر فان عمراً عبر النيل إليها وكان يدافع عن المدينة دومتينانوس كما اسلفنا وقد كان تحت تصرفه عدة سفن لى يهبط بها على جيش عمرو عند عبوره ولكن القائد الرومى لم يكديرى المسلمين حتى اعتراه الخور فترك جيشه وسفنه وأمعن في الهرب إلى الاسكندرية وتلاه جنده فأمعنوا بعد ذلك فى الفرار وجروا إلى السفن وعند ذلك طلع جنود العرب على الروم وهم فى الماء بغير سلاح - يقول بترل - فقتلوه عن آخرهم ولم ينج منهم إلا رجل اسمه زكريا ثم دخل العرب المدينة فلم يقف فى وجههم جنود واحد - قال حنا النيقوسى - فقتلوا

كل من وجدوه في الطريق من أهلها ولم ينبج من دخل في الكنائس
لائذا ولم يدعوا رجلا ولا امرأة ولا طفلا ولا شك أن حنا النيقوسى
كان مبالغاً لأنه إذا سلمنا أن العرب قتلوا الرجال فلا يعقل أنهم يقتلون
الشيوخ والأطفال والنساء ولم نسمع عنهم في كل حروبهم أنهم فعلوا
شيئاً كهذا وبخاصة في هذه المعركة التي لم يلقوا فيها مقاومة من
أعدائهم .

وبعد فتح نيقوس أصبح الطريق مفتوحاً إلى الإسكندرية وكان
جيش الروم عند ذلك يقوده تيودور ويتقهقر به شيئاً فشيئاً نحو تلك
العاصمة . ولم يبق عمرو في نيقوس طويلاً بل أمر النميل إلى الغرب
وبعث قبل تحركه واحد من رجاله ليمتبع العدو المنهزم فاحتقت هذه
الطليعة بجيش الروم عند موضع إلى الشمال من نيقوس فأحاط الروم
بالطليعة فاضطر قائدها وهو شريك أن يبعث إلى عمرو الذي بعث
إليه بمدد لم يكده الروم يسمعون به حتى فروا هاربين فأضافوا بذلك
غلطه إلى سلسلة أخطائهم ويعرف الموضع الذي حدثت فيه هذه
المعركة باسم كوم شريك نسبة إلى ذلك القائد العربى . ووصل عمرو
إلى كوم شريك وأخذ يواصل زحفه متجهاً إلى الشمال الغربى ومتتبعاً
جانب الترعة التي تخرج من شمال كوم شريك إلى الاسكندرية ثم
انحدر إلى الشمال ميمماً وبجهه شطر دمنهور فاعترضه الروم مرة أخرى
عند مدينة سنطيس إلى الجنوب من دمنهور ووقعت هناك واقعة
انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب ولم يحاولوا أن يدخلوا دمنهور

بل تدافعوا الى الشمال الغربي في الطريق المؤدى الى الاسكندرية حتى
أشرفوا على حصن كريون - وكريون هذه آخر حلقة في سلسلة
الحصون التي تربط ما بين بابلليون والاسكندرية ولم تكن في مناعة
حصن نيقوس ولكن الروم عولوا أن يقفوا هناك الواقعة الأخيرة في
وجه العرب قبل اللجوء الى الاسكندرية وقد روى المؤرخون حتى
المسامون منهم بسالة الروم وشجاعة تيودور قائدهم ولكن تيودور على
الرغم من شجاعته ومما وصله من المدد من البلاد المجاورة مثل بلبيس
وسخا وسنطيس وغيرها لم يكن ذا رأى في الحرب ولم
تجده تلك القوى التي تجمعت عند كريون لمقاومة العرب
ولا بد أن كلا من العرب والروم كان يعتقد أن مصير كريون له ما بعده
واستمر القتال أكثر من عشرة أيام وأصيب عبد الله بن عمرو بجروح
خطيرة وكان حامل لواء المسامين وردان مولى عمرو وأبطأ الفتح على
المسامين حتى اضطر عمرو الى أن يصلى بالناس صلاة الخوف ويخيل
الينا أن الروم قد يئسوا من النصر رغم حسن بلائهم فأخذوا بقيادة
تيودور يتقهقرون بانتظام جيد جدا الى الاسكندرية وهكذا سقطت
كريون في يد العرب وأصبح الطريق أمام عمرو والعشرين ألف جندي
الذين يقودهم مفتوحا الى الاسكندرية لا تقوم فيه عقبة واحدة وقضى
عمرو في كريونه أيام قلائل ربما يستريح جنده من وطأة الحرب
السابقة ثم أخذ بعد ذلك يتحرك صوب الاسكندرية وما هي الا أيام
قلائل حتى أشرف جنده على أسوار عروس البحر الأبيض وأجهل ثغوره

وقد كنا نريد قبل الكلام على حصار الاسكندرية وتسليمها
 أن تأتي بوصف شامل لها من أيام تأسيسها في عهد الاسكندر المقدوني
 إلى حالتها أيام البطالسة والرومان وعند الفتح العربي ولكننا نرى الآن
 أن لا نقطع سلسلة الفتح مكتفين بوصف قصير ومرجئين الكلام
 المفصل إلى باب نعتقد فيه فصولا للمسائل السابقة ونضيف إليه فصلا
 في مشكل مكتبة الاسكندرية وفصلا آخر في تدهورها.
 ونسير الآن مع عمر وجنوده البواسل بعد أن استراح في كربون
 أيما إلى الاسكندرية.

(١٠) حصار الاسكندرية وتسليمها

لسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الاسكندرية كانت حتى في هذا
 القرن السابع أجمل مدائن الدنيا وأرشقها بل لسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا
 إنها كانت أجمل من القسطنطينية نفسها وأنها قد ورثت تراث البطالسة
 في أيام مجدهم، والنصرانية في أوقات زهائها، وإذا كانت الاسكندرية
 تبدو جميلة حتى في نظر أولئك الذين شاهدوا مدائن غيرها كبيرة فإنها
 بلا شك كانت رائعة في نظر أولئك العرب الذين لم يرحوا مكة والمدينة
 إلا ليزورا بعض أطراف الشام وفلسطين والعراق فلامحج إذا نبتت
 المدينة لهم وقد أشرفوا على أسوارها وشاهدوا قبابها وأعمدتها ومسلاتها
 ومنارتها العظيمة التي كانت إحدى عجائب الدنيا السبعة - إن كثير امن

المدائن في الشام والعراق تمكن العرب من إسقاطها ولكنهم الآن أمام
 مدينة قوية التحصين يحميها البحر من الشمال وتحميها القنوات والترع
 من الجنوب والغرب وتمتد في أسفلها بحيرة مريوط وتحيط بها أسوار
 عالية من كل جانب أما من الناحية الشرقية فكانت أسوارها مهيأة
 بكل الأسلحة العالمة التي أنتجتها فنون الحرب في ذلك العصر وكانت
 المدينة وافر الدخيرة والمؤن تروح السفن وتغزو إلى مينائها في البحر
 الذي لم يكن للعرب سفينة واحدة فيه وتشرف على حمايتها مسلحة
 عدتها خمسون ألف مقاتل تلك كانت عدة المدينة عاصمة الامبراطورية
 الثانية فإذا أعد العرب لفتحها لم يكن لديهم من العدة إلا سقيمها ولم
 تكن لهم خبرة في فنون الحصار وحربه ولكنهم كانوا يحملون
 قلوبا ملئت إيمانا وقوة وجربوا من قبل قوتهم هذه في فتح أمصار
 الشام - أراد عمرو أن يجرب قوته فحمل على المدينة عند أول
 وصوله إليها حملة غير موفقة لم يلبث أن ارتد بعدها بعيدها عن
 الأسوار حتى لا يتعرض لقذائف المجانيق ولم يكن عمرو رجلا غير
 حصيف فرسم لنفسه سياسة لاسقاط المدينة غير طريقة الهجوم التي
 أصبحت في نظره مستحيلة وهي استدراج الحامية إلى خارج الأسوار
 والالتقاء بهم في ميدان مكشوف وليس كذلك قد يطول ولم
 يكن عمرو من السخف بحيث يترك عشرين ألف جندي كسالى عند
 أسوار مدينة لا تثر في جودهم فأثر أن يخف في عسكره جيشا كافيا
 للرباط وأن يسير هو مع من بقي من الجند فيضرب بهم في بلاد مصر

السفلى قبل أن يجيء موسم الفيضان فيتعذر على المسلمين أن يسيروا فيها وكان كثير من الروم قد هجروا قصورهم حول الاسكندرية وتحصنوا داخل أسوار الاسكندرية فوقمت هذه القصور فيمنا في يد العرب فهدموا الكثير منها وبعثوا بخشبها وحديدتها في سفن ليقيموا بها جسرا على النيل عند بابليون وكان عمرو يريد الرجوع إلى بابليون ولكنه أراد أن يشعر سكان الدلتا بوجوده فصار إلى كليون ومنه إلى دمنهور ثم إلى فرع رشيد إلى إقليم الغربية وضرب في ذلك الاقليم حتى بلغ قصبته وكانت إذ ذاك مدينة سخا ولكنه لم ينجح في اسقاطها المناعة أسوارها ولا اكتنافها بالمياه فتركها وتحرك إلى الجنوب حتى وصل إلى طوخ الواقعة إلى الشمال الغربي من موضع طنطا ومن طوخ عبر فرع دمياط إلى دسيس ولكنه لم ينجح في اسقاط هاتين القريتين أيضا ثم بعث بسرايا من جيشه قيل انها وصلت إلى مدينة دمياط ، ونضى العرب زهاء ثنى عشر شهرا في إقليم الدلتا دون أن يجنوا كبير فائدة قال بقلر - وهذا يزيدنا برهانا على ما نحت أيد ينال البراهين على فساد رأيين يذهب اليه الناس أولهما أن مصر من أذعنتم للعرب بغير أن تقاوم أو تدافع وثانيهما أن المصريين رحبوا بالمسلمين ورأوا فيهم الخلاص والنجاة مما هم فيه .

لم يكن ثم مناص بعد هذا من أن يعود عمرو إلى الاسكندرية غير أننا نرى لزاما علينا قبل أن نعود معه إلى الاسكندرية ترك قليلا

لنجول ببصرنا في أنحاء الدولة البيزنطية لنرى عن أي شيء كانت
تتمخض الحوادث هناك أثناء تجواله هو في أرض الدلتا مما كان له أثر
في تسليم الاسكندرية كما سنرى مات هرقل في ١١ فبراير سنة ٦٤١ م
قبل تسليمه بالبيون بشهرين تاركاً وراءه ولدين أحدهما قونسطيطين
من زوجته الأولى أو دقيا وهرقل أو هرقلوناس من زوجته الثانية
مرثينا وبينما كان الأول يعد العدة لانقضاء مصر مات في مايو من نفس
السنة تاركاً وراءه طفلاً لا هو فونستانز الثاني - وقد أكره
حزب الحرب بتمسدة فالتين أو فلنتنيمان الامبراطوره مرتنيا على أن
تشارك قونستانز الثاني مع ولدها في الحكم - ونفذ قونسطيطين أمر أبيه
فبعث بأسطول ليعيد قبرس من منفاه ، وكان هرقل يود قبل موته
أن يرجعه ويجمع به ليشاهده في أمر مصر كما كانت مرثينا ترغب في
ذلك جدا - وجاء قبرس واتقى بقونسطيطين ومرثينا ، وقد مدح في
إغراء قونسطيطين ومرثينا وحملهما على تسليم مصر ، ولكن
قونسطيطين لم يلبث أن مات في ٢٥ مايو سنة ٦٤١ م بعد حكم دام
مائة يوم فانخذت مرثينا من موته وسيلة تدرعت بها إلى المبايعه لابنها
هرقلوناس ملك الدولة .

سافر قبرس إلى مصر ومعه طائفة كبيرة من القسوس ولم ينقص
شيئا من سلطانه الديوى بل أباح له الامبراطور أن يصالح العرب
وأن يقضى على كل قتال عد ذلك في البلاد وأن يعمل على قوار الأمور
فيها وإدارة شئونها وهذا بلا شك يريد أن الامبراطور كان يعتقد

أن في طوقه الايقاع على ملطته في مصر - أما قبروس الذي يقولون عنه إنه كان خائناً للدولة فإنه بلا شك كان رئيساً من انتصارها على العرب بعد أن توالى الجزاء عليها في الشام ومصر ومن أجل ذلك كان يطمع في ظل الحكم الجديد أن ينال من العرب حقاً يبيح له ممارسة مذهبه الديني في مصر وبسط يده على الكنيسة القبطية فيمساها حتى لا يكون لأحد في القسطنطينية وكان يعتقد أن العرب لن تبخل عليه بهذا نظير مساعدته لهم في تسليم البلاد .

ولم تكن الاسكندرية نفسها أقل انتماساً وشجاراً فقد انقسم الجند فيها إلى حزين - أحدهما بزعامه مياناس وهو قبضي محبوب من الشعب والآخر بزعامه دو منتيانوس الذي رأينا خيانتة في القيوم ونيقيوس وكان من أنصار قبرس - أما تيودور فكان يكره كلا من الرجلين ويخيل إلينا أنه كان يأمل أن ينقذ جزءاً من الأمبراطورية ليسيطر عليه نفسه - وفوق هذا فإن المدينة نفسها كانت تغص بالهاجرين من بلاد الدلتا الذين كان من بينهم عدد كبير من الأقباط المخلصين لمذهبهم والذين بدأوا يثيرون المنازعات الدينية من جديد - وكان اليهود أيضاً طرفاً في بعض ذلك النزاع - وإن من أعجب الأشياء أن ينزل قبرس بالاسكندرية في أحد أصبحة شهر سبتمبر سنة ٦٤١ م فيذكر يوحنا النبقوسي أن أهل المدينة طرام ملكهم الفرح فخرجوا يذكرون سرورهم ويشكرون الله على عودة بطريق الاسكندرية ونوافد الناس من كل جانب يحيمونه ويكرمونه من رجال ونساء كباراً وصغاراً وهو وصف

يمكننا أن نستنتج منه وقد وعدنا يوحنا النيفيوسى صدق أخباره
 أن الأقباط في الاسكندرية كانوا فئة قليلة ضائعة بين أهلها الكثيرين
 لا يحس بهم أحد - واجتمع قيس سرا مع تيودور ودعا إلى اجتماعهما
 ميناس واستقر الامر على عزل دومنتيانوس وجعل ميناس قائداً لحماية
 المدينة . وانتهى رأى لقيس ومن معه على الاعتقاد بان غزو العرب
 للبلاد ليس إلا غزوا دثميا وعلى ذلك تحرك قيس إلى بابلين في
 أواخر أكتوبة سنة ٦٤١ م وكان العرب قد قضوا الأشهر الاواخر
 القليلة في إخضاع مصر العليا حتى وصلوا الى مدينة طيبة ، وقد أراد
 أهل تلك المنطقة أن يقاوموا العرب ولكن الحاكم حنا أى كل الابه
 أن يقف لقتال العرب ثم استولى على الاموال العسامة التي
 جمعت وحملها معه وخرج بجنوده ضارباً إلى الصحراء الغربية
 قاصداً الاسكندرية إذ كان يخشى أن يلتقى ما لقيمه جنود الفيوم
 من قبل وعلى ذلك يمكننا أن نقرر في اطمئنان أن غزو
 مصر العليا كن أمراً سهلاً بالنسبة لغزو بقية البلاد المصرية وان
 المسادين هناك قبلوا أن يدفعوا الجزية عن طيب خاطر لسادتهم الجدد
 ولست أدرى أكان عمرو نفسه على رأس تلك فرق التي غزت الصعيد
 أم أنه اكتفى بإرسال بعض قواته اليها ومهما يكن من أمر فانه قد
 حاداً الى بابلين بعد أن سم فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر
 الوسطى كيما يستريح بأصحابه في أوان فيض النيل وكان ذلك قبل
 وصول قيس إلى بابلين - البقي قيس بعمره فقل له إن الناس

قد عرلوا على أن يدفعوا الجزية كيما تقف ربحي العرب فقل عمرو لقد
احسنت في ذلك بخصوص الينا ثم أكرم وفادة قيرس ورحب به واستمرت
المفاوضة أياما طويلة وانتهى الأمر في اليوم الثامن من شهر نوفمبر
سنة ٦٤١ م بكتابة عقد الصلح الذي نسميه صلح الاسكندرية وإن
كان قد عقد في بابليون ثم يزا له عن الصلح الذي سبق عقده عقب
حصار بابليون - ونستطيع أن نقرر أن هذا الصلح الجديد اسلم مصر
نهائيا الى العرب - وقد أورد حنا النقيوسي شرط ذلك الصلح ورثتها
العلامة بتل في البنود الآتية .

معاهدة الاسكندرية :

(١) أن يدفع الجزية كل من دخل في العقد .

٢ أن تعقد مدة مدتها أحد عشر شهرا تنتهي في شهر رابه القبطي

الموافق ٢٨ من سبتمبر سنة ٦٤٢ م

٣ أن يبقى العرب في مواضعهم في مدة الهدنة على أن

لا يقوموا بأي عمل حربي ضد الاسكندرية وأن يوقف الروم كل
الاعمال العدائية .

٤ أن ترحل حامية الاسكندرية في البحر وأن يحمل الجنود

معهم متاعهم وأموالهم على أن من أراد الرحيل من جانب البحر فله

أن يفعل على شريطه أن يدفع كل شهر جزية شهرية ما بقي في رحلته

في أرض مصر .

(٥) أن لا يعود جيش من الروم الى مصر أو يحاول استردادها .

(٦) أن يكف المسمون عن أخذ كنائس المسيحيين وأن لا يتداخلوا
بأى شكل في أمورهم الدينية

(٧) أن يباح لليهود البقاء في الاسكندرية

(٨) أن يبعث الروم من قبلهم رهاثن عدتها ١٥٠ جنديا، ٥٠ مدنيا
ضمانا لانفاذ هذا العتد

وقد أصبح المصريون بهذه الماهدة أهل ذمة أو على حد التعبير
الأوربي تحت الحماية العربية أما قيمة الجزية التي نص عليها في البند
البند الأول فقد نص البلاذري على أن عمر اصالح المقوقس على ثلاثة
عشر ألف دينار ولا شك أن هذا خدأ ربما كانت صحته ثلاثة عشر
ألف ألف دينار كما تؤيد ذلك بعض الروايات الأخرى العربية التي
يتأرجح تقديرها بين ١٢ ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار ولا شك
أن الأقرب إلى الصحة والمعقول هو ١٢ ألف دينار وهذا المبلغ
يعادل تقريبا ستة آلاف من الجنيحات - وكانت الفريضة على كل حالم
من القبط دينارين دينارين - وسنعود إلى تفصيل الجزية ومقاديرها في
موضوع آخر

أما الشرط الثاني الخاص به فقد هدنه مدتها أحد عشر شهرا فانه
بمقتضى أنه كان في صالح المسمين الذين لم يكن لديهم من القوة ما يحلهم
على إكراه الروم على تقصيرهم هذه المدة
وأما الشرط الثالث الخاص : بأن يبقى العرب في مواضعهم مدة
الهدنه ويرى بطلان أنه خاص بأهل الاسكندرية لأن قبرص وإن كان قد

صالح للعرب بالنيابة عن أهل البلاد كلها ما كان يضمن أن ترضى كل مدينة أو طائفة بما رضى به هو ولم يمنع ذلك الشرط العرب من قتل بعض البلاد في مدة الهدنة وأكراهها على السلم عنوة

وأما الشرط الرابع الخاص برحيل حامية الاسكندرية بحرا وبرا فهو شرط رحب به العرب ورأينا فيه رأينا في الشرط الثاني وهو أن العرب قبلوا هذا الظرف فهم الخاصة ولو كانوا أصحاب قوة لاستطاعوا أن يصادروا أملاك الخامية ولما سمحوا لهما بحمل أموالها

وأما الشرط الخامس الخاص بعباس عودة الروم لاسترداد مصر فإنه كان شرطا صوريا سرعان ما كذبته الحوادث إذ حاول الروم بعد ذلك استرداد الاسكندرية كما سيأتي ذلك

أما الشرط السادس الخاص باباحة الحرية الدينية للأقباط فهو شرط كانت الظروف تتطلبه من الجانبين ولم يشهد العرب فيه عن تصرفاتهم مع كل أهل الذمة

كذلك يمكننا أن نقول هذا عن الشرط السابع باقامة اليهود في الاسكندرية.

وأما الشرط الثامن الخاص بالرهائن فهو بلا شك شرط تافه وصورى كالشرط الخامس وغيره وبحمل أن نشير هنا الى أن بابليون سلمت أثناء فيضان النيل بالشروط التي رفض هرقل الموافقة عليها وكذلك الاسكندرية فانها سلمت في وقت فيضان النيل أيضا - ولا نستطيع أن ننقل من هذه المسألة الى مسألة أخرى قبل أن نشير

الى موضوع يبدىء مؤرخو العرب ويعيدون فيه اطلاقا هل فتحت مصر عنوة أو صلحا وقد اختلفت فيه آراء المؤرخين ولكل فريق منهم حججه وأكبر ظننا أن هذا الخلاف لم يكن الا نتيجة خلط الحوادث فاما فيما يتعلق بفتح بالميون فقد رأينا أن الزبير قد تساق الاسوار عنوة في نفس الوقت الذى خرجت فيه الحامية لموافقة على الشروط التى كانت قد انتهت اليها عمرو مع القرص - وهما نشأ الاختلاط - أما فيما يتعلق بفتح الاسكندرية فقد بينا الآن أنها فتحت صلحا بالعقد الذى أوردنا نصوصه ولكن لما أعاد الرومان فتح الاسكندرية وخرج اليهم عمرو وكما سنبين فيما بعد وأكرههم على التسليم خاط فريق من المؤرخين بين هذا الفتح عنوة والفتح السابق صلحا ويجب أن لا ننسى أن المؤرخين العرب بطبيعة الحال يميلون الى أن يكون الفتح صلحا لأغراض أهمها أن لا يكون الفتح مقيدا بشروط تغل أيديهم بعض الغل ولعل أقلها الفخر الذى يعود على الفاتحين عنوة. أمضيت المعاهدة في نوفمبر سنة ٦٤١ م كما بينا وتلتها هدنة مدتها أحد عشر شهرا وحمل قيرس شروط الصلح الى تيودور وهو القائد الأعلى للجيش وقونسططين وهو قائد الحرس فأقراها وان كانا لم يحضرا كتابتها أو يتفقا على تفاصيلها مع قيرس قبل ذهابه الى بالميون ويرى بطلر - أن موقف تيودور محير مدهش وأنه اذا كان عالما بتسليم المدينة للعرب فلا بد أنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح ، وأما اذا

كان غير عالم فمن أعجب الأمور أن يسارع إلى الموافقة على أمر لا يصفه
بتلر إلا أنه كان تسليماً شائناً .

وفي ديسمبر ظهر فريق من العرب أمام أسوار المدينة يطالبون
القسط الأول من الجزية وقد أثار ظمهم رمم الدهشة والحماس في نفوس
السكان وهموا بحرب العرب وكادوا أن يقتلوا قبرس قبل أن يتمكن
من الإفصاح عن نواياه وإفهامهم أن لافائدة ترجى من المقاومة - وكان
هرقلوناس قد أقر المعاهدة في آخر نوفمبر سنة ٦٤١ م فكانت آخر عمل
قام به كمبراطور لأنه قتل هو وأمه بعد ذلك قتلها حزب فونستمار
الذى انفرد بالحكم في نفس الشهر وكانت نتيجة ذلك أن كل أصدقاء
قبرس نفوا ووجد البطريق نفسه الآن بين فرقتين يناصبانه العداوة
الأقباط في مصر وحاشية الامبراطور في القسطنطينية وكان قبرس
منذ عودته من المنفى لم ينس ما في قلبه من حفيظة على ديانة القبط فلم
يرض أن يسألهم أو يهفو عنهم بل عاد إلى عسفه وظلمه وجعل يوقع
بمن كان منهم في منال يده - ويرجع بتلر - أنه كان يفعل ذلك ليدارى
عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهي اسلام مصر جميعها للعرب
أدرك قبرس الآن مبالغ الخطأ الذى وقع فيه بتسليم مصر وساءه
أن تفشل خططه فهجره أصدقؤه وكان يخشى نقمة أعدائه فى بلاط
القسطنطينية ولعل الحزن قد حز فى نفسه ونجست أمامه جريمته
فقضى نحبه فى مارس سنة ٦٤٢ م .

وفى يولييه سنة ٦٤٢ م أرسل بطريق ملكاني جديد اسمه بطرس

وكانت حالة الاسكندرية عند وصوله تستدعى الاسى فقد ركبت فيها
سوق التجارة وخلت أرصفتها من المراكب والبضائع وهجر الأشراف
الأغنياء وكبار التجار مدينتهم وتركوا بيوتهم خاوية على عروشها .
وفي ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م بارحت الحامية الرومانية لاسكندرية
وبعد اثني عشر يوما دخلها العرب .

والآن وقد دخل العرب الاسكندرية نبرز نقطة حديرة بالمناقشة
وهي ؟ هل كان في طوق العرب أن يفتحوا الاسكندرية عنوة ؟
والجواب على ذلك يمكن أن نقرأه في أول هذا الفصل ونريد لك
تلخيصه الآن في كلمات قليلة وهي أنه لم تكن هناك ضرورة حربية
تدعوا إلى التسليم ما دامت أطيل الروم تسيطر على البحر فستطيع
أن تمد المدينة بالمؤونة والذخائر والجند إذا استدعى الأمر فتنفذ بذلك
أطول حصار يمكن أن يعرفه الناس وبخاصة لأن العرب لم يكن لديهم
علم بالحصار ولا وسائله - قال بترل - قد يقول قائل أن فتح بابليون قد
أوهم الروم وأن جنودهم قد امتلأوا هيبه من العرب وأن الجيش الروماني
كان لا يثق في قراده ولا يرى منهم إلا الخيانة والعجز وكل هذا صحيح
ولكن كان في الاستطاعة إرسال جنود غير تلك الجنود وقواد غير
أولئك القواد ولكن أحدا لم يسع إلى ذلك .

وقد يسأل سائل عن السبب الذي حمل أهل الاسكندرية على
قبول الصلح والرضى عن قبرس بعد أن كادوا يفتك - كرون به والجواب ؟
عن ذلك يمكن أن تلخصه في نقطتين .

النقطة الأولى دينية والثانية اقتصادية .

فأما عن الأولى فإن الناس كانوا يأملون في ظل الحكم العربي أن يمارسوا طقوسهم الدينية في أمن ودعة وأن يتخلصوا من اضطهاد قيرس وطغيانه

وأما المسألة الثانية فإنهم كانوا يأملون أن تنزاح عن عوائقهم تلك الضرائب المتعددة التي كان يبهظهم بها الروم - حقيقة إن العرب أحلوا محل هذه الضرائب الجزية وخراج الأرض ولكنها مهما يكن مقدارها كانت لها فضيلة البساطة وكانت ثابتة المقدار محدودة القصد وعلى كل فإن أهل الاسكندرية ومصر كان يجول في خواطرهم أن الحكم العربي إن لم يكن أحسن من الحكم الرومي فلهذا يكون أسوأ منه

وقبل أن نختتم هذا الفصل يجدر بنا أن نذكر أن عمراً كتب بشروط الصلح التي عقدها مع قيرس وبعث بها إلى كل بلاد مصر وأمن الناس على أموالهم وذمتهم وكنائسهم وحمايتهم من أهادئهم إذا دفعوا الجزية وسنرى في الفصل التالي ما كان من شأنه مع بقية البلاد التي لم تفتتح .

وكذلك نذكر هنا أن عمراً بعد أن تم فتح الاسكندرية بعث إلى الخليفة عمر برسول هو معاوية بن حديج ينهى إليه أمر الفتح ويصف له الاسكندرية فلما رأى عمر الرسول قام معه إلى المسجد وأذن المؤذن للصلاة فأدام الصلاة شكراً لله على ما أولى ولما عاد معاوية إلى داره صلى مرة أخرى ثم طلب الطعام فقدم له خبز وزيت يأندم به فوضع

ذلك أمام الضيف فأصاب منه شيئا خفيفا على استحياء ثم قدم له تمرا
في طبق فأكل على حياء أيضا ثم قال ماذا قلت يامعـاوية حين أتيت
المسجد قال قلت أمير المؤمنين قائل - قل بئس ما قلت أو بئس ما
ظننت لأن نمت بالنهار لأضيق من الرعية ولئن نمت الليل لأضيقن نفسي
فكيف بالنوم مع هذه يامعـاوية .

قل بتلوه هكذا أرسل نبا الفتح إلى المدينة وهكذا تعلقـاه
الخليفة بغير زينة ولا ضجة

لقد سجلنا على الرومان أغاليطهم أبان خطرات الفتح الأولى
وقلنا إن سقوط بابليون أفقد الرومان نصف إن لم يكن أكثر من
نصف مصر وأظن أنا في حال الآن أن تقرر أن تسلم الاسكندرية
كان الخش غلطاتهم وإذا كن الرومان قد خسروا نصف مصر بعد فتح
بابليون فلا شك أنهم الآن بعد فتح الاسكندرية قد خسروا أربعة
أخماس النصف الثاني وسندكر في الفصل التالي كيف فقد الرومان البقية
الباقية لهم في مصر .

١١- (فتح بلاد الساحل وبقية الصعيد)

لم تكد تنتهي مدة الهدنة حتى بارحت الحامية الرومانية الاسكندرية
(١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م) ثم دخل العرب المدينة الخالدة في ٢٩ سبتمبر سنة
٦٤٢ م وقد سبق أن قلنا إن عمر أرسل الى سائل لمدين مخبر هابشـروط الصلح

ولكن بلم يرى ذلك على سبيل الاحتمال فقط وكان طبيعياً بعد امضاء
الامبراطور هرقلو ناس عقد الصلح أن تطفأ كل جذوة للمقاومة وأن
يستمتع الأقباط الى ماعرضه عمرو من شروط حسنة ولكن الذى حدث
غير ذلك إذ أن بعض البلاد فى شمال الدلتا كانت رومانية أكثر من الرومان
فرفعت لواءهم ورفضت أن تتخلى عن الأمر للعرب وكانت هذه حماقة
ما بعدها حماقة ان دلت على شىء ففى تدل على أن الأقباط لم يرحبوا
كل الترحيب بالعرب كما هو رأى الشائع لدى جمهور المؤرخين وقد
اضطر رفض هذه البلاد عمرا الى أن يسير اليها بنفسه أو يرسل اليها
السرايا لتدخلها فيما دخل فيه سائر الناس ، وذلك على الرغم من أن
عمرا فى هذه الاثناء كان منشغلا بأمر آخر وهو بناء مدينة الفسطاط
فى السهل الذى يلى حصن بابليون مما منع رد له بابا خلافا بعد الفراغ
من أمر الفتح .

وتاريخ فتح بلاد الساحل غامض فى المراجع العربية وفيه خلط
كبير ولا تزال المراجع القبطية شيئا من الغموض فى الحوادث التى
نالت فتح الاسكندرية لأن حنا النميقيوسى لم يذكر شيئا من أمر
القتال فى هذه المدة وقد ضايق هذا الأمر المؤرخ بلم فلم يجد بدا من
الاعتماد على مؤرخى العرب وما جاء فى أخبارهم رغم صعوبة فهمها أو
الربط بين أجزاءها وقد صرح أنه يلجأ إلى الخدس والتصور فى ربط
الحوادث وترتيبها ونعني إلى حد كبير نتابعه فى تاريخ هذه الفترة
بعد الاسكندرية تحرك العرب إلى الشرق لفتح بلاد الساحل

وكان أول بلد اتجهوا اليها هي مدينة إخنأ التي تقع على مقربة من أبي
 قير الحالية وكان حاكم هذه المدينة يسمى الطلافأاه كتاب من عمرو
 يطلب اليه التسام على الشروط التي صالح عليها قبرس وفرض تحمل
 بالسؤال عن مقدار الجزية فلم يحتمل عمرو هذا وسير إلى المدينة فرقة
 أرغمتها على التسليم وأخذت من أهلها جهورا كبيرا من الأسرى
 بعثت بهم إلى عمر بالمدينة .

وكان نصيب مدينة بلهيب الواقعة على النيل إلى الجنوب من
 رشيد مثل نصيب قرية إخنأ وعقد صالح آخر مع قزماش حاكم مدينة
 رشيد ، وصالح غيره مع حنا حاكم مدينة البرلس .

ومن البرلس تحرك العرب شرقا حتى وصلوا إلى مدينة رخيس
 على ساحل البحر الأبيض إلى القرب من دمياط ومنهم من اتجهوا إلى
 مدينة دمياط فلم يلتقوا كيذا وسلم لهم حاكم مدينة لمسمى حنا أيضا
 وبسقوط دمياط ورشيد سيطر العرب على مصب النيل الهامة
 وامتد نفوذهم إلى كل بلاد مصر السفلى إذ استتقيا بعض البلاد الواقعة
 على الجزائر المبعثرة في بحيرة المنزلة ذات الماء الضخضاج وكانت
 أهم هذه البلاد الجزائرية بلدناشطا وتينيسر (وهي خلاف تانيس أو صان
 الحجر الواقعة إلى الجنوب الغربي منها على الفرع التانيسي)

فأما شطا فيخاط بعض مؤرخي العرب (كالفريزي) بينها وبين
 تانيس ودمياط ويقولون أن العرب عند ما حاصروا دمياط وفتحوها
 خرج اليهم حاكمها (شطا) ومعه الفان من الناس فأعلن إسلامه وكان

قد ظل مدة من قبل يدرس هذا الدين وأنه لما رأى أن العرب قد طالت مقاومة تنيس لهم جمع جيشا من مدن البرلس ودميرا وأشمون طناح وجهم ولحق بامداد المسلمين الذين قدموا من عند عمرو بن العاص إلى قتال أهل تنيس فالتقى الفريقان وأبلى شطا منهم بلاء حسنا وقتل من تنيس اثني عشر رجلا واستشهد في ليلة النصف من شعبان سنة ٢١ هـ فقبر حيث هو الآن خارج دمياط وبني على قبره وصار الناس يجتمعون هناك في ليلة النصف من شهر شعبان كل عام ويقول المقرئ إن شطا هو ابن الهاموك وكان أبوه خال المقوقس وإلى شطا تنسب الثياب الشاطوية ولا شك أن نسبة المدينة إلى شطا بن الهاموك لأن شطا كانت معروفة قبل الفتح العربي وكانت تستمر بدقة منسوجاتها وجودتها ، وقد ذكر يوحنا النيقوسى خرافية أن حاكم دمياط اسمه حنا وليس شطا .

أما تنيس فكانت مدينة فائمة على جزيرة في الطرف الجنوبي الغربي من بحيرة المنزلة وكانت مدينة كبيرة متسعة تجود بها صناعة المنسوجات القيمة شأنها في ذلك شأن عدة مدائن أخرى تختلف في البحيرة مثل طونة ، ودميره ، وديق ، كانت تصل هذه الجزيرة بالنيل ترعة تعرف ببجر الروم ، وكان لها ميناء صالح ترسو عليه السفائن ، وأشهر أنواع الأقمشة التي كانت تصنع هناك النوع المعروف باسم أبو قلمون الذي كان خريزه يبدو متغير الألوان ، وتدل القصة العربية على

أن حاكم تنيس كان رجلاً من العرب النصراني اسمه أبو طور وإنه
 خرج على رأس جيش كبير من القبط والرومان لحرب المسلمين وهم
 في طريقهم إلى تنيس بعد استيلائهم على دمياط فالتقى بهم في عدة
 مواطن ولم يتمكن العرب من هزيمة جيشه وأخذ أسيراً إلا بعد لاي
 شديد وبعد ذلك سلمت المدينة لهم ومن هنا تحركوا إلى الشرق ناحية
 الفرما يقصدون الفرما - قل بتلر - مهما يكن من أمر تلك القصة
 ومباغها من الصدق أو الخطأ فإنها تحوى أمرين لهما قسط وافر من
 الصحة - أحدهما أن العرب فتحوا تنيس في ذلك الوقت - والثاني أنهم لم
 يصيبوا صناعاتها المشهورة بشيء من السوء

ولم تعجب هذه البلاد الواقعة في بحيرة المنزلة العرب فلم
 يفكروا في الإقامة فيها ولعل هذا يفسر لنا بقاء النصرانية في هذه
 البلاد زمناً طويلاً

يتبين لنا من أخبار هذه الفتوح في شمال الدلتا أن المصريين لم
 يسلموا للعرب بغير قتال ولم يرحبوا بهم

أما مدن الصعيد فقد سبق أن أشرنا إلى أن النفوذ العربي امتد
 هناك إلى إقليم طيبة ونضيف هنا أن فتح هذا الصعيد تم على يد
 خارجة بن حذافة ولسنا نعتمد على الحقيقة في قليل أو كثير إذا نحن
 ذكرنا أن بلاد الصعيد بعد فتح الأسكندرية أذعن للعرب بغير
 قتال ودلينا على ذلك أن المراجع العربية والمراجعة القبطية تصمت
 صمتاً تاماً .

وقد سبق أن أشرنا في الفصل الماضي إلى موت قيرس ونضيف
هنا أن أموته كان بعد دخول العرب الإسكندرية بستة شهور وتختلف
الروايات في سبب قتله فبعضها يذكر أنه خاف من عمرو فجعل في فمه
خاتما مسموما فمات من ساعته ولكننا لا نميل إلى تصديق هذه الرواية
لأن قيرس الذي لم يخف من الأمبراطور عند لقائه ليس معقولا أن
يخاف ذلك الخوف فينتحرو ويؤذي رأينا هذا ما ذكره يوحنا النميقيوسي من أنه
مرض بالدوسنتريا ومات فيها وهذا لا ينفي أنه عاش في أيامه الأخيرة
غريقا في بحار الحزن وسنعالج مشكلة قيرس في موضع آخر

« ١٢ » فتح برقه وطر ابلس والنوبة وانتهاء حكم الرومان بمصر ،

والآن وقد تم فتح مصر بسقوط الاسكندرية واخضاع بقية
بلاد الدلتا وتسليم بلاد الصعيد فانه يحيل الينا أن عمرا أدرك بذلك
إن مقامه بمصر لن يكون آمنا إذ يجوز جدا أن يعود الروم الى
استردادها من ناحية المغرب فلمكي يصون فتوحاته فكر في أن يفتح
ذلك الاقليم الواقع الى الغرب منها المعروف باسم اقليم بلطابوليس
والمرجع العربية لا تشفى غلطنا أيضا في وصف هذا الفتح واليالك
بعض ما أورده هذه المراجع

ذكر البلاذري أن عمرا بن العاص لما فتح الاسكندرية سار في
جنده يريد برقه وهي مدينة انطا بوليس فصالح أهلها على الجزية

وهي ثلاثة عشر ألف دينار يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه
ب لهم بذلك كتابا ؟

وذكر السيوطي ؟ أنه لم يذهب إلى برقه إلا الخليل ، وأن الطريق إليها
كان سهلا أو على حد تعبير بقر كان نزهة لفرسان العرب ولا نعلم على
وجه التحقيق فيما تحت أيدينا من المراجع أكان فتح برقة في فترة الهدنة
الطويلة أم كان بعد دخول العرب الأسكندرية فإن الخلاف في ذلك
بين المؤرخين كبير - فقد ذكر ابن الأثير أن غزو برقة كان في
سنة ٥٢٢ هـ - أما ابن خلدون وياقوت والكندي فيذكر أن الغزوة
كانت في سنة ٥٢١ هـ وكذلك يذكر ابن بطريق أنها كانت في سنة ٥٢٢ هـ
وبخيل إلينا أن هذا الخلاف نتيجة خلط بين هذه الغزوة وبين سرية
أخرى أرسلت إلى بلطابوليس في سنة ٥٢٥ هـ - وقد ولي عمرو عقبة بن
نافع الفهري المغرب فبلغ زويله - ذكر البلاذري والسيوطي ذلك وكتب
به إلى الخليفة عمر - قال البلاذري ؟ بلغ عقبة زويله وإن من بين زويله
وبرقة سلم كلهم حسنة طاعته وقد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم
بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويله ومن بينهم وبينها ما رأى أنهم
يطيقونها وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها
في الفتراء ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إليه بمصر وأن يؤخذ
من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح
صلحهم اه ؟ قال بقر : في شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان الأول
أنه أبيع لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة والثاني

أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية إلى مصر حتى لا يسمح بدخول جبابة
الجزية إلى بلادهم - وقد قال ياقوت إن أكثر أهلها أماسوا .

وبعد ففتح برقة سار عمرو إلى طرابلس وكانت أكثر منعة من
برقة إذ كانت بها حامية كبيرة من الروم وكان البحر من ورائها خاليا
من العدو فأدرك العرب هذا وحاصروا المدينة حصارا قدره بعض
المؤرخين بشهر وقدره بعضهم بثلاثة أشهر ثم دخل جماعة من المسلمين
بين أسوار المدينة والبحر فصاحوا صيحتهم الله أكبر فترددت أصدانها
في طريق المدينة فزعر المدافعون وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم
وأسرعوا إلى سفنهم وحلوا قلوبها وفي أثناء ذلك ترك الحراس الأبواب
ودخل عمرو بجيشه المدينة فكان فتحها عنوة كما ترى - قال البلاذري
وأصاب عمرو بها أحمال زبون كبيرة مع تجار من تجارها فباعه وقسمه
بين المسلمين وكتب إلى عمر بن الخطاب إننا قد بلغنا طرابلس وبينها
وبين إفريقية تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في فتحها
فعل فكتب إليه ينهأ عنها ويقول له ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة
غادرة مغدور بها وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا
فكانوا يغدون به كثيرا - ونلاحظ هنا أن الخليفة عمر قد عاوده
حرصه على عدم التوسعة في الحرب حتى لا يعرض المسلمين إلى التهلكة
في الأقطار الشاسعة - غير أن عمرا لم ينتظر حتى يأتيه رد الخليفة
عمر بل أنه بعد فتح طرابلس صار مسرعا حتى طلع بغتة على مدينة
صيرة وهي تقع إلى الغرب قليلا من طرابلس وهاجمها في الصباح على

غرة من الناس الذين كانوا يعتقدون أن العرب لا يزالون على حصار طرابلس ولهذا فتحت المدينة عنوة عند أول حملة حملوها عليها فكان أخذها عنوة وقد غنم العرب منها غنائم كثيرة - بعد فتح صبره عاد عمرو إلى برقه فجاءت إليه أم قبيلة من قبائل البربر وهى قبيلة لواته فدانت له بالطاعة ولم يطل مقامه فى برقة طويلا بل عاد على رأس جيشه المظفر يسوق أمامه عددا كبيرا من الأسرى ومقدارا كبيرا من الأسلاب .

ودفع الحرص عمرا على مصر أيضا إلى فتح جزء آخر حتى لا تعرض البلاد التى ذكر يعتر بفتحها إلى شىء من الخطر وقد سبق أن قلنا إن كل بلاد مصر السفلى قد سلمت للمسلمين حتى أسوان ولكن النوبة كان يمكن أن تهدد مصر وكن أهلها قذى فى عيون الحكماء المصريين فى كل العصور أميرا ما يغيرون على بلاد الصعيد لينتهبوا خيراتها فرأى عمرو أن يؤمن حدود البلاد من الجنوب كما أمنها من الغرب .

قل البلاذرى ، فبعث عقبة بن نافع الفهرى وكان نافع أخ العاصى لأمه فدخلت خيولهم أرض النوبة كما تدخل صوائف الروم فلقى المسلمون بالنوبة قتالا شديدا لقد لا قوم ورشقوم بالنبل حتى جرح عامتهم فانصرفوا بحراحت كثيرة وحقق مفتوعة فسموا رماة الحدق فلم يزالوا كذلك حتى ولى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح فسأله الصلح والمواذعة فأجابهم بذلك على غير جزية ولكن على هدنة ثلاثمائة رأس فى كل سنة وعلى أن يهدى المسلمون إليهم طعاما بقدر ذلك أه ؟

من هذا الذي أورده البلاذرى يتبين لنا أن المسلمين لم يتمسكوا
 من فتح النوبة لا عنوة ولا صلحا وأن الصلح الذي عقده عبد الله بن
 سعد سنة ٣١ هـ في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان صلح ندين
 وكان أقرب ما يكون إلى المهادنة لا يقاتل فيها فريق الآخر وإن أعطت
 النوبة رقيقا أعطى المسلمون بقدر ذلك طعاما وخلعا وقد وصلت إلى
 عمرو هذه الجزية التى يسميها المقرزى البقط قبل أن يعقد عبد الله بن
 سعد المعاهدة معهم - قال لين بول - وصلت البقط أو الجزية السنوية
 وقدرها ثلاثمائة وستون رقيقا إلى عمرو بن العاص ومعها أربعين رقيقا
 آخر هدية لعمرو ولكنه رفض قبولها كهدية ودفع نظيرها غللا
 ومؤونة - وسنعود إلى ذكر هذه الجزية التى ظلت تدفع حتى عصر
 المماليك أى أكثر من ستة قرون عند الكلام على ولاية عبد الله بن
 سرح لمصر

بهذه المهادنة التى تمت مع النوبة نستطيع أن نقرر فى شيء كبير من
 الأطمئنان أن حكم الرومان قد انقضى من مصر نهائيا وأن فتح مصر قد
 تم نهائيا للعرب وأن ذلك الفتح قد أحيط بفضل حرص عمرو وذكائه
 بكل ما يمكن أن يحاط به من الضمانات والآن قبل أن تنتقل إلى الكلام
 عن أعمال العرب فى مصر نرى لزاما علينا أن نعالج مشكلة كثيرة
 ما كانت موضع الخلاف بين المؤرخين العرب والأجانب، بين الأبخان
 وبعضهم البعض وتلك هى مشكلة شخصية المقوقس وقد تصدى الحاجة
 هذه المشكلة العلامة تلم فى شيء كبير من الأسهاب وسننتقل على

ما أورده في ملاحق كتابه فتح مصر إلى حد ما .

١٣ « شخصية المقوقس

لم تثر شخصية الخلاف في تعرف حقيقتها بين العلماء ولم تحيط شخصية في التاريخ بالغموض التي أحيطت به شخصية المقوقس الذي لعب دوراها ما في تاريخ الفتح العربي لمصر وقد قام الخلاف بوجه خاص بين مؤرخين عظيمين أحدهما الأستاذ بتلر صاحب كتاب فتح العرب لمصر الذي يعتبر أكبر كتاب وأهمه في تاريخ هذه الفترة الغامضة والثاني العلامة استانلي لين بول صاحب كتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى -- ومن غريب الصدف أن كلا من المؤرخين كتب كتابه في سنة متقاربة فالدكتور اين بول وضع كتابه في سنة ١٩٠٠ م والدكتور بتلر وضع كتابه بعد ذلك عامين وقد ذهب لين بول إلى أن الشخصية التي كان يطلق عليها العرب إسم المقوقس إنما كانت نطاق على جورج حاكم الافليم الشرق لمصر ويعتمد في ذلك على تحرياته الخاصة وعلى ما كتبه بعض المؤرخين مثل الدكتور ملن صاحب كتاب مصر تحت الحكم الروماني الذي يقول في الملحق الرابع من كتابه تحت عنوان جورج المقوقس مانصبه : تبدل الروايات العربية عن فتح العرب لمصر على أن أهم شخصية في الرومان كانت شخصية المقوقس أو جورج ميناس المقوقس كما أورد ذلك أبو صالح وهو معتدل على أنه حاكم مصر الذي دعا العرب إلى غزو البلاد وخان

بلاده بذلك - أما الأستاذ كاراباك فقد ناقش المسألة وانتهى به الأمر إلى أن المقوقس إنما هو تحريف للقب من ألقاب شرف اليونانية يطلق على جورج بن ميناس - ولكن يوحنا النيقوسى وهو أقدم بكثير من كل مؤرخى العرب وأضبط في أخباره فانه يلقى ضوء على المسألة وهو يقرر أنه بعد معركة هليوبوليس في يولية سنة ٦٤٠ م عندما كان عمرو يتهىء إلى محاصرة حصن بابليون أرسل إلى جورج الحاكم وأمره أن يبنى جسراً على قناة قليوب شمال بابليون وأن جورج بدأ من ذلك الوقت يتعان مع العرب إن هذه الحقيقة توضح لنا حكاية المقوقس إذ يرجح أن جورج كان حاكماً يريب إذ لم تكن مقاطعته معددة بينما أسماء حكام مصر ومصر السفلى وأركاديا قد ذكرها يوحنا النيقوسى في موضع آخر وربما كانت وظيفته على شرق الحدود تجعله أقل شخص هام أتت إليه رسل محمد ﷺ وأن الانصال الأول بين المسلمين والرومان كان عن طريقه وبذلك كان طبيعياً أن تكون له أهمية خاصة في نظر مؤرخى العرب وتلا ذلك أنه بانضمامه مع العرب وبهيمنته على طرق المواصلات بين بابليون والاسكندرية قد قدم خدمة عظيمة لعمرو وعلى ذلك ازدادت أهميته وكان المركز الذى وضعه فيه مؤرخى العرب يرجع إلى هذه الظروف اهـ .

أما مؤرخو العرب فان الإنسان يرتب لك لكثره الأسماء التى ذكرها مما لا نرى داعياً إلى إعادة ذكرها وتحريى الشخصيات التى قصدوها ولكننا نكتفى بذكر ثلاث أشخاص منسباً معرفتهم وهم

المقوقس ، وأبو مريم ، والاعرج .

١ ، فلما الأعرج أو الأعرج فقد ذكره ياقوت وغيره على أنه كان نائباً عن المقوقس ، ويقول لين بول ، أنه هو أرطبيون أحد الروم ، ولكن بئر يرى أنه قلب لاسم جورج قائد حصن باليمون

٢ ، وأما أبو مريم ، أو أبو مريام ، أو ابن مريم ، فقد ذكره الطبري وغيره على أنه كان كبير أساقفة النصارى ، ويرجح بئر معتمداً على بعض مؤرخي القبط أنه لم يكن غير بنيامين البطريق اليعقوبى الذى فر من وجه قيرس وأعادته عمرو بنسأه على طلب القبط ويمكن بسهولة إدراك أن الألفاظ السابقة ليست إلا تحريفاً لاسمه وإن كان بئر نفسه عاد فقال فى رسالته معاهدة مصر فى الطبرى التى نشرها بعد كتابه فقال إن من الجائز أن يكون لفظ أبو مريام تحريفاً لاسم قائد أرسله لمساعدة قيرس يسمى مريانوس -- يقول معرب بئر وبذلك تبطل حجة المؤلف فى ترجيح مؤرخى العرب وحمل قولهم على الخلط .

٣ ، وأما المقوقس وهو موضع بحثنا الآن فقد ذكره البلاذرى وقال إنه صالح عمر أو كان فى جانب القبط بعد أن أبى هرقل أن يقر صلحه -- وذكر الطبرى -- أن المقوقس كان حاكم نفيس وأنه كان عظيم القبط -- وذكر ابن الأثير -- المقوقس على أنه كان يقود الجيش بنفسه فى معركة عين شمس ثم ذكره أنه كان حاكم الاسكندرية وقت الحصار ويجعل ابن خلدون المقوقس قبطياً -- ويذكر ابن دقاق المقوقس الرومى عامل هرقل -- ويذكر المقرئى أن المقوقس الرومى كان والياً

على مصر وصالح عمرا وهو يتفق في ذلك مع ياقوت الذي يقول إن
المقوقس بن قرقب كان يونانيا ويدكر أن القبط كان لهم في الاسكندرية
أسقف اسمه أبوميامين وأن المقوقس صالح العرب غير أن هرقل
لم يقر صلحه وعنفه على أنه كان كالقبط في الجبن والخسة - وذكر
قيرس يقال إن هرقل أقام قيرس بطريق الاسكندرية - وذكر كل من
ابن تفردي والسيوطي المقوقس على أنه ابن قرقب اليوناني من كل
هـ - هذه المراجع العربية يمكن أن نستخلص أن المقوقس كان
أولا يونانيا - وثانيا كان صاحب النفوذ الأول في مصر
بقى أن نبحت الآن من المراجع القبطية على من يمكن أن تنطبق
تلك الأوصاف والأعمال التي ذكرها مؤرخو العرب ونلجأ ذلك إلى
مؤرخين لا محل لاطعن في روايتهم - فاما أحدهما فهو يوحنا النيقوسى
وهذا قد ذكر في أكثر من موضع أن قيرس كان ذا سلطان في أمر
الدين والدنيا ، وذكر أيضا الاضطهاد لذي شهره هرقل في بلاد مصر
جميعها على أتباع مذهب القبط وذلك بتحريض البطريق الخيلقدوني
قيرس - وجاء في كتاب ساويرس أن هرقل بعد استعادة مصر من
الفرس استعمل قيرس وجعل له ولاية الدين والحكم في الاسكندرية ثم
ذكر اضطهاد القبط وبنيامين فقال عشر سنين كان هرقل وقيرس
يحكمان فيها مصر - وفي الوثائق القبطية التي نشرها آميلنو وثيقة عن
البطريق المسكاني (الخالقدوني) الذي لا يعترف له القبط بالسلطان
بل إنهم يوالون بطريقهم بنيامين على أن ذلك البطريق الخالقدوني قد

جميع له السلطان الدينى والديوى على بلاد مصر - من كل هذه
 التحقيقات وغيرها استطاع الاستاذ بتلر أن يؤكد أنه لم يعد شك
 فى أن المقوقس - وقد ورد اسمه بهذا النص فى الصورة الأصلية القبطية
 هو قيرس بعينه ونحن نتابع الدكتور بتلر فى رأيه هذا وان كان قد
 جرحه الاستاذ لين بول بالتشكيك أولا فى صحة ترجمة النصوص
 القبطية وبعدم الميل الى تصديقها إن كانت صحيحة وحجته فى ذلك
 أن سلسلة كتب المؤرخين العرب الطويلة ليست فيها أى إشارة الى ان
 المقوقس هو قيرس وأن المسائل التى جعلت شخصية المقوقس تنطبق
 على شخصية قيرس كانت من باب الاتفاق وأنهما كان شخصان مختلفان
 كان كل منهما حاكما على مصر من قبل هرقل وان المقوقس كان حاكما
 تابعا قام بمصالحة العرب وأن قيرس البطريق والحاكم الأعلى أقر مقام
 به وتابعه عليه.

وقد عاد الاستاذ لين بول فى الطبعة الثانية لكتابه (١٩١٤ م .
 فقال ان الحجج التى أدلى بها الدكتور بتلر فى رسالته معاهدة مصر
 فى الطبرى سنة ١٩٣ م والى تضمنت تأييدات جديدة لنظريته يعتبرها
 فصل الخطاب ويسره أن يعلن أنه قد اعتنق رأى بتلر ولكنه يقول
 إن من الصعب أن يفسر الانسان لماذا يسكاد كل مؤرخى العرب
 بمجمعون على أن المقوقس كان قبطيا وكيف أنهم كانوا كلهم يجهلون
 اسمه الحقيقي ووظائفه الدينية لذلك يمكن أن نعتبر أن شخصية
 المقوقس قد ثبت فيها نهائيا وأنه لم يكن غير قيرس البطريق الملكانى

والحاكم المدني لمصر من قبل هرقل.

بقيت هناك مسألة وهي هل قبره هذا هو الحاكم الذي بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن بلتعنة سنة ٦٢٧ م أم هو شخص آخر غيره والاجابة على هذا السؤال تقل عنه أن عن تعرف شخصية المقوقس. فالدورخون العرب الذين بروون كتاب النبي يذكرون بصريح العبارة كلمة المقوقس عظيم القبط بمصر والنسخة الأصلية لكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس التي يقال إن بعض المستشرقين وجدوها في الصعيد في منتصف القرن الماضي يقرأ فيها بالخط الكوفي كلمة عظيم القبط ولئن كانت هذه النسخة حقيقية غير مزيفة فأنها تهد كل وصل إليه بقل بعد هذا الجهد الكبير ولستنا ندري لم لم يتعرض بقل لذكر كتاب النبي عليه السلام إلى المقوقس مع أنه أعتمد على براهين أقل منه قوة بكثير حقيقة أنه قد نتض الرأى الذى وصل اليه آميلنو من أن خبر ارسال خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس في سنة ٦٢٧ م خبر غير حقيقى وبقل على حق في رفض رأى آميلنو لأن الروايات تجمع عليه ولا تختلف الا في بعض الفاظ الكتاب وتؤديها الأدلة المادية ومن بينها زواج النبي من مارية القبطية وانجابها له ولده ابراهيم ولكن نص الخطاب ومناقشة كلماته وبخاصة كلمة المقوقس عظيم القبط لم يتعرض لها بقل بأكثر من قوله الذى نوردته هذا. وأما ما قيل من أن المقوقس ورد ذكره في سنة ٦٢٧ م على أنه حاكم مصر إذ أرسل

النبي محمد كسبته الى ذلك الحاكم يدعوه فيه الى الاسلام فانه اعتراض
يسهل الجواب عليه فان من أوضح الحقائق أن مؤرخي العرب
الذين يذكرون اسم المقوقس ليس عند أحدهم أى إدراك لمعنى
ذلك اللفظ ولا لاشتقاقه وقد استعمل اللفظ وقصد به حاكم مصر
فى سنة ٦٢٧ خطأ فتد كان عنده مؤرخى العرب أمران (١) أن النبى
محمد أرسل رسـولا الى حاكم مصر سنة ٦٢٧ م (٢) أن حاكم مصر
فى وقت فتح مصر كان اسمه المقوقس وهو الذى كان أكثر الناس ذكرا
فى تاريخ ذلك الفتح فاستنتجوا من ذلك خطأ أن الحاكم السابق كان
اسمه المقوقس كذلك وهذا خاطئ كان من اسهل الأمور ويكاد يكون
لا بد منه فى عقول لم تكن بطبعها نقاده فليس ثمة ما يبرر تكذب
خبر بعث النبى بالرسول الى حاكم مصر كما فعل آميلنو إذ أنه خبر قام
عليه من الدليل ما قام على أى خبر مصدق من أخبار تاريخ الاسلام اهـ
وبتلز هنا ينكر بطريق غير مباشر نص كتاب النبى ويطعن النص الذى
أجمعت على روايته المراجع العربية لخطابه عليه السلام بالتزوير ونحن
وان كنا ننتهم الصورة التى قيل إن أحد المستشرقين د إتيان
بارتلمى الفرنسى (حصل عليها سنة ١٨٥٠ م بدير قرب
أنجم على رق بال لكتاب النبى بأنها نسخة مزورة لفقها بعض الذين
يغررون وقد بها الخط السكوفى فانا لانستطيع الا أن نقرر أن كلمة
المقوقس هذه ربما كانت علما على حاكم مصر أو رئيسها الدينى سواء
أكان ذلك الحاكم قبطيا أم رومانيا ولا يسعنا فى هذا المجال الا أن نقرر

أن الغموض الذى صعب المقوقس لم يزل النقاب الا عن شخصيته التى
 ثبتت وبخاصة بعد اعتناق ابن بول لراى بلمر أنه هو قيرس البطريق
 المسمى والحاكم الرومانى لمصر - أما كيف جاء هذا اللفظ المقوقس
 وشاع عند المؤرخين العرب حتى أطلقوه على ثلاثة أشخاص :-
 (١) الحاكم الذى جاءه كتاب النبى قبل الفتح بسنوات (٢) الحاكم الذى
 كان وقت الفتح (٣) وعظيم القبط وقت ثورة منويل وكلهم يستحق
 أن يلقب به نقول ان هذا اللفظ وهل هو اسم بيزنطى أو لقب بيزنطى
 أم غير ذلك وما أصله وما معناه وهل كان العرب يطلقونه على كل شخص
 يحكم مصر من قبل الروم أم هو علم على شخص خاص - نقول - ان
 ذلك رغم بحوث بلمر وغيره لا يزال لغزا غامضا يحتاج الى حل لا تساءلنا
 المراجع والبحوث التى بين أيدينا على تحقيقه واماطة اللثام عنه .

«الباب الرابع» وفيه - فصول -

﴿ الاسكندرية ﴾

(١) - « وصفها في عهد البطالسة والرومان »

في سنة ٣٣٢ ق م غزا الاسكندر المقدوني مصر وفي أثناء رحلته من منف إلى كانوب عثر على مدينة صغيرة تدعى رقوده واقعة على الزاوية الشمالية الشرقية لبحيرة مريوط فجعل بخاطره أن ميناء رقوده وجزيرة فاروس التي تقابلها يصلحان لأن يكونا عاصمة لامبراطوريته فأمر في الحال بتخطيط المدينة وكلف مهندس دينوقراطيس بأن يمسح المكان وبأن يضع تصميمًا لعاصمة حربية تجارية من الدرجة الأولى وقد أشرف الاسكندر بنفسه على تخطيط الأرض وفي الحال ابتدأت عملية البناء ولكن المدينة لم يتم بناؤها إلا في عهد بطليموس الثاني (فلادلفيوس) وكان كل ملك من ملوك البطالسة يبدأ في تجميل المدينة وتوسيعها - والذي نقد التصميم الذي وضعه دينوقراطيس مهندس آخر يدعى كليومينيس النقراشي وكانت المدينة تشبه مستطيلاً استديرت منه الزوايتان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية - وكان شوارع المدينة متقاطعة تقاطعاً عمودياً ومتسعة اتساعاً يكفي لمرور العجلات والراجلين وكان يخرق المدينة شارعان عظيمان يبلغ عرض كل منهما مائتي قدم ؛ يوصلان ما بين أبواب المدينة الأربع الرئيسية وكان أطولهما يمتد من

الباب الكانوى إلى باب الجبانة « من الشرق إلى الغرب » والثانى
يتمدد من باب الشمس إلى باب القمر « من الجنوب إلى الشمال » وقد
وصفت المسافة ما بين الأرض والجزيرة برصيف عريض تركت في
أسفله فتحات تسمح لمرور المياه بين كل من المينائين الذين
كونهما الرصيف وكان كل من هذين المينائين من السعة بحيث
يستطيع أكبر اسطول أن يرسوا فيه وقد حميت كل ميناء بحـ واجز
عند مدخلها تجعل السفن الواقفة في الميناء بأمن من عواصف البحر
وفى الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة قيروس كانت توجد المنارة العظيمة
التي بدأفى بنائها بطليموس الثانى وتمت فى عهد خلفه وكانت هذه
المنارة مكونة من عدة طبقات يبلغ ارتفاعها نحو ٤٠٠ قدم وكانت
تعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ولا يزال الفنار القديم فى الاسكندرية
يحتمل مكان هذه المنارة .

وكانت المدينة مقسمة إلى ثلاثة أحياء .

« أ » حى اليهود .

« ب » الحى الملكى أو اليونانى

« ج » الحى المصرى أو حى راقودة .

« د » فأما حى اليهود فكان يقع فى الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة وكان
يحيط به البحر وسور المدينة والحى اليونانى وكان كعظم أحياء اليهود
فى أوربا فى عصرنا هذا محاطا بسور وله بوابات خاصة وقد كانت هذه

الأسوار شديدة الزوم لليهود إذ لم يكن بينهم وبين اليونان السكندريين
أى وثام وكانت نيران العداوة مستمرة دائما بين الفريقين

«ب» أما الحى الثانى أو الحى الملكى أو اليونانى فكان يحده من
الجنوب والشرق أسوار المدينة ومن الشمال الميناء الكبير، ومن الغرب
حى راقودة والشارع الرئيسى الذى يصل بين باب الشمس وباب القمر
عند الهيبتاستديوم « الرصيف الذى يصل الأرض بالجزيرة »

وكان لهذا الحى أسواره الخاصة أيضا وهو الذى تحصن فيه قيصر
ضد أهل الاسكندرية وكان يقسم هذا الحى إلى قسمين الشارع الكبير
الذى تمتد من البوابة الكاوية إلى جبانة المدينة « النيكروبوليس »
وكانت تصل إليهم مياه النيل فى أنابيب أو قنوات تدخل المدينة من
الجنوب وتمر بالقرب من نادى الألعاب وكان هذا الحى أهم أحياء
المدينة ففيه قصر الملك المنطقة التى توجد بها أهم وأضخم معالم
المدينة وكان البطالسة يعملون باستمرار على تجميله وتوسيعه واليك
بيان أهم المباني التى كانت فيه إلى الشمال بجوار الميناء الشرقية كان يوجد
قصر البطالسة تحيط به حملة قصور صفار لأبنائهم تكتنفها الحدائق
والغابات الصغيرة - كذلك كانت توجد به المكتبة الشهيرة والمتحف
والمسرح الذى كان مخصصا لالتقاء المحاضرات وعقد الاجتماعات العامة
وكانت تصل ما بين هذه المباني أعمدة منحوتة من الرخام المقطوع من
المحاجر المصرية وتتخللها عدة مسلات وتماثيل لآبى الهول منقولة عن
آثار المدن الفرعونية ، وكانت المكتبة تحوى على بعض الأقوال

سبعمئة ألف مجلد وعلى قول آخر أربعمئة ألف مجلد وكان بعض هذه المجموعة التي لا تضارع مودعا في معبد سيرابيس في حي راقوده وقد أودع في هذه المعبد المائتي ألف مجلد الذي جمعها مملوك برجامن وأهداها المرك انطانيوس إلى كليوباترا ولقد أصاب المكتبة حريق فظيع عندما كان يوليوس قيصر محاصرا في الأسكندرية وينسب بعض المؤرخين من الأفرنج أنه قد تمت إادتها على يد عمرو قائد الخليفة عمر في سنة ٦٥١ م وسنعالج هذه المشكلة في الفصل الثالث من هذا الباب . ولقد حل المتحف محل جامعة هليوبوليس القديمة فصار جامعة مصر المشهورة في كل أنحاء العالم وكان بالمتحف قاعة كبيرة للمآدب يتناول الأساتذة فيها الطعام مع الناس ويحيط بها من الخارج ممر دائري ذو أعمدة للتمرين والمحاضرات المتنقلة ومسرح كانت تقام فيه المجادلات العامة والمآدب المدرسية .

وفي هذا الحى أيضا كان يوجد معبد القياصرة التي كانت يعبد فيه الأباطرة أحياء كانوا أم أمواتا وعلى مقربة من هذا المعبد كان يوجد برج أطلق عليه اسم برج الرومان فاذا سرنا غربا فانا نمر بمخازن الغلال العامة وبمقبرة البطالسة الفخيمة التي كانت تضم جثمان الاسكندر العظيم وفي هذا الحى أيضا كانت توجد المحكمة الكبرى حيث كان يجتمع الشيوخ ويمارسون الحقوق القضائية بقدر ما كانت تسمح لهم حكومة شبه مستبدة كحكومة البطالسة والتي كانت فيما بعد يعقد فيها قضاة الرومان جلساتهم ، وكان في الحى علاوة على ما ذكر ناد

للألعاب ومدرج «ايفيتريتو» ومكان للمصارعة وكانت كل هذه الأشياء من المناظر التي يتسلى بها سكان المدينة المرحين - وفي الناحية الغربية كان يوجد الارسنيوم وهو الأثر الذي أقامه بطليموس فلاديفوس تخليداً لذكرى اخته المحبوبة أرسينوه والبانيوم الذي كان عبارة عن تل أو مخروط من الحجر يحيط به سلم لولبي من الخارج يصعد الناس إلى قمته فيصبح كل شيء في جميع أنحاء المدينة مرئياً له - على أن الغرض الحقيقي من بناء هذا البانيوم لا يزال مجهولاً ولقد رتب المهندس دينوقراطيس هذه المباني الواحدة بعد الأخرى بحيث كانت كلها تكشف الميناء الكبرى والفنار . وفي وسط هذه المباني كان يوجد ميدان فسيح تحيط به البواكي وتقع أمامه من ناحية الشمال أرضفة المدينة حيث الامبريوم أو السوق الاكندري العظيم وفي هذا المكان ظلمت كل أمة من العالم المتدينين طول ثمانية قرون تبعث بمثلها وفي الحق ان الاسكندرية ورثت تجارة كل من صور وقرطاجنة وجمعت في هذه البقعة من الأرض ثلاث قارات في المتاجر والمضاربات .

ج - حي راقوده أو الحى المصرى وكان يقع في مكان قرية راقودة القديم وأشهر مبانيه مخازن الغلال معبد سيرابيس ولسنا ندرى هل أقيم هذا المعبد في عهد بطليموس الأول أو الثانى وكان تمثل الآلهة الموجودة في هذا المكان مصنوعة من الخشب وذكر بعض المؤرخين أنه كان مصفحاً بصفائح من مختلف المعادن النفيسة وقشها المعادن الكريمة وكان لون التمثال أسود وربما كان ذلك راجعاً الى كثرة حرق

البخور حوله أو الى أنهم طلوه به - هذا اللون أما أصل التمثال ومن
أين أتى به فأمر مشكوك فيه - ويرى بعض المؤرخين أن الاسكندرية
التي فتحها العرب لم تكن إلا حي راقوده وسنعود لمعالجة هذا في
الفصل الثانی - ولكم قاسى هذا الحى من الحروب الداخلية كما قاسى
من الغزو الخارجى واند التهمت النيران معبد السرايوم مرتين مرة
فى عهد ماركس أورليوس والاخرى فى عهد كومودوس ولكن على الرغم
من كل هذه النكبات فانه عاش أكثر من حىي اليهود واليونان -
إن لنا فيما كتبه الأقدمون عن الاسكندرية فى إبان ازدهارها خير
وصف لما كانت عليه من جمال فائق ولم يكن تدهورها نتيجة كسر
الزمان بل كان من صنع الانسان إن مناخها الجاف قد حفظ كثيرا
من آثارها وأبقى عليها ألوانها الزاهية على الرغم من كثر القرون ولما
زارها الامبراطور هادريان سنة ١٣٠ م وجاس خلالها تراءت فى نظره
وكأنها لا تزال عروس البطالة البكر

والآن وقد أتمينا من وصف الاسكندرية فى عهد البطالسة
والرومان فانا ننتقل الآن الى وصفها عند الفتح العربى .

« ٢ - وصف الاسكندرية عند الفتح العربى »

يبالغ كتاب العرب فى وصف الاسكندرية عند الفتح فيذكرون
أرقاما يصعب تصديقها كقولهم إن الاسكندرية كان بها أربع مائة
مسرح وأربعة آلاف حمام وأربعة آلاف قصر واثنى عشر بائع

للخضر وان عدد سكانها كان ستمائة ألف من الرجل عدا النساء والأطفال من بينهم مائة ألف من الروم وسبعين الف من اليهود ولا شك أن هذه الأرقام فيها مبالغة سببها الدهشة التي أصابت العرب عند رؤية مدينة لم يشاهد مثلها من قبل - ويرى بعض المؤرخين ومن بينهم بترل أن خطأ وقع في نسخ الكتاب الذي بعث به عمرو إلى الخليفة بعد فتح الإسكندرية وأن الخطأ ناجم عن إضافة صفر على مئين هذه الأرقام - ويقول بترل إنا إذا قرأنا أربعمائة قصر وحمام يدل أربعة آلاف الخ لما كان في التقرير شيء غير ممكن وقد جاء نص كتاب عمرو إلى الخليفة في ابن عبد الحكم وابن بطريق والمقريزي وغيرهم ونحن نثبت نصه هنا كما ورد في المقريزي ج ١ ص ٢٦٩ أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك؟ وذكر المقريزي بعد ذلك نقلا عن أبي قبيل أن عمرا لما فتح الإسكندرية وجد فيها اثني عشر الفا يبيعون البقل الأخضر وتوكل من الإسكندرية في الليلة التي دخلها عمرو وفي الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودي - وروى المقريزي أيضا - أنه كان بالإسكندرية فرجا أحصى من الحمامات اثني عشر ألف ديماس (بناء بمقد) أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس كل مجلس يسع جماعة نفر وكان عدة من بالإسكندرية من الروم مائتي ألف رجل فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها

ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل وبقي من بقي من
 الأسارى من بلغ الخراج فأحصى يومئذ ستمائة ألف سوى النساء
 والصبيان فاختلف الناس على عمرو في قسمها فكان أكثر الناس يريد
 قسمها فتال عمرو لا أقدر على قسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين
 فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمها
 فكتب إليه عمر لا تقسمها وذرها يكون خراجها فيئنا للمسلمين وقوة
 لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها ففرض عليهم الخراج
 اهـ - المقرئى والحق يقال إن الاسكندرية وإن لم تكن تلك الأوصاف
 التي ذكرها المؤرخون صحيحة إلا أنها كانت بلا شك مدينة رائعة
 فخمة وكانت كما وصفها أحدهم يكثر الممر في أرضها وبنائها وعمدها
 فتبدو بيضاء لامعة في النهار والليل وكان الرهبان يلبثون الثياب
 السود لهذا السبب وفي الليالي المظلمة - وروى بعض المؤرخين أن
 ضوء القمر كان إذا وقع على الرخام الأبيض بالليل جعله يضيء حتى أن
 الحائك كان يستطيع أن يضع الخيط في الابرة بغبر أن يستضيء
 بمصباح وما كان أحد يستطيع أن يدخل المدينة إلا إذا أخذ أعينه
 غطاء من خرق سود يقيهما بهر الظلاء والرمم.

لقد قلنا في الفصل السابق إن الاسكندرية التي فتحها العرب لم
 تكن إلا رقومه وليس معنى هذا أن الحيز الأخير حتى الروم وحتى
 اليهود لم يكن لهما أثر إذ الواقع أن أشهر معالمها كانت لا زل قائمة -
 ولقد كانت دهشة العرب من تخطيط المدينة وتقاطع شوارعها لا تقل

عن دهشتهم من فخامة مبانيها ومما لفت النظر الصهاريج التي كانت
تخزن فيها المياه والتي كانت مشيدة من طبقات بعضها فوق بعض .
كذلك أعجبت العرب منارة الأسكندرية المشهورة التي كانت
تقع في الطرف الشرقي من جزيرة فاروس وقد روى السيوطي - أن
طولها كان أكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الأسفل
وفوق المنارة المربعة منارة مثمثة مبنية بالأجر وفوق المنارة المثمثة
منارة مدورة مبنية بالصخر المنحوت على أكثر من مائتي ذراع وكان
عليها مرآة من الحديد عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من
يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فان كانوا أعداء تركوهم حتى يقرؤوا
من الأسكندرية فاذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب اداروا المرآة
مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس على ضوء
المرآة فتمتع على السفن فتحرقها ولا نعلم هل كان مرآة المنارة من زجاج
أم من حجر شفاف كما إننا لا نعلم بالضبط كيفية إشعالها بالليل وقد
ذكر المقرئ أنه كان في المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل
ويقصد ركاب السفن تلك المنارة على بعد فاذا رأى أهل المنار ما يريد
اشعلوا النار من جهة المدينة فاذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس
فيمتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو ويميل بطل إلى الرأي بأن الوصف
الذي ذكره العرب للمنارة يمكن أن يعد تنبؤا لاستعمال المنظار المقرب
لأنه ينطبق على وصف العدسة الضوئية أكثر من وصف المرآة وهو
لا يستبعد أن تكن مدرسة الأسكندرية العظمى قد كشفت سر العدسة

الضوئية وصنعتها ثم نسي أمر هذا السر بعد تخريب المنارة، ثم هو يقول إن مساجد القاهرة وإن اختلفت أشكالها ورسومها لا تزال كـثرة منها على رسم منارة الإسكندرية فهي برج قاعدته مربعة ثم تصير بعد ذلك متممة الأضلاع ثم تدق بعد ذلك ويستدير شكلها ثم يعلوها عند القمة مصباح.

أما تحطيم هذه المرأة فقد ذكر السيوطي وغيره أن ملك الروم إحتال لما انتفع بها المسلمون في ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام على أنه راغب في الاسلام فوصل إلى الوليد وأظهر الاسلام وأخرج كنوزا ودفائن كانت بالشام مما حمل الوليد على أن صدقه على أن تحت المنارة أموالا ودفائن وأسلحة... فخره مع جماعة من ثقافته إلى الإسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرأة ثم فطن الناس أنها مكيدة فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدة له ثم بنى ما تدم بالجص والآجر.

وقد أعجب العرب أيضا المسلمين المصنوعتين من حجر الجرانيت واللتين كانتا قائمتين أمام كنيسة القيصريون التي كانت من أهم الكنائس وأعظمها وقد كانت في الأصل معبد أوثينا بنته كليوباترا إعظاما لقيصر ثم أمه أوغسطس ثم تحول في عهد قلسطنطين إلى كنيسة مسيحية ولكنه كان في عهد الفتح العربي لا يزال محتفظا باسمه القيصريون — كذلك شاهد العرب بناء السرايوم وهو طائفة من المباني ذات الجمال الرائع كان لها أثر عظيم في نفوس العرب وكان

واقعا في المكان الذي يقوم فيه اليوم عمود دقلديانوس الذي يقرن ذكر السرابيومي عادة به - وعمود دقلديانوس هذا هو الذي سماه العرب بعمود السواري - وقد قال المقرئزي إن هذا العمود حجر أحمر فقط وهو من الصوان المانع كان حوله نحو أربع مائة عمود كسرها إلى الإسكندرية في أيام صلاح الدين الأيوبي ورمائها بشاطئ البحر ليموعر على العدو سلوكه وهو يذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطاطاليس - والمؤرخين العرب أقوال أخرى عجيبة في هذا العمود - فقل إنه كان جزءاً من معبد بناه سليمان عليه السلام وذكر المقرئزي والسيوطي أن الأنسبان إذا حاذاه عن اقرب وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل عنه والاستاذ بقل لا يطمئن إلى معظم هذه الأقوال التي وصف بها مؤرخو العرب أبنية الإسكندرية وهو يقول إن هذا القصص إن دلت على شيء فإماتدل على دهشة العرب من الأبنية التي صارت ملكاً لهم ولكنه يطمئن بعض الاطمئنان إلى بعض ما جاء في تلك الأوصاف كاطمئنانه إلى الوصف الذي أورده المقرئزي بالسرابيومي حيث قال ؟ وكان في الإسكندرية قصر عظيم لا يماثله قصر في بلاد العالم قائم على تل تجاه باب المدينة طوله خمسمائة ذراع وعرضه على النصف من ذلك وبابه من أعظم بناء وانقنه كل عضادة منه حجر واحد وعتبته حجر واحد وكان فيه نحو مائة أسطوانة وبأزائه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثالها غلظها ستة وثلاثون شبراً وعلوها بحيث لا يدرك أعلاها قاذف حجر وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أنه كان فوق ذلك

بناء وتحتها قاعة حجر أحمر محكم الصناعة عرض كل ضلع منه عشرون شبرا
في اعتبار ثمانية أشبار والاسطوانة منزلة في عمود من الحديد قد
خرقت به الأرض فاذا اشتدت الرياح تحرك إلى أن قال وقد زعم قوم
أنها مما عمله الجن لسليمان بن داود عليهما السلام كما هي عادتهم في
نسبة كل ما يستفزعون عمله إلى أنه من صنيع الجن وليس كذلك
بل كانت مما عمله القدماء من أهل مصر .

كذلك كان من الأشياء التي لفتت انظار العرب الملعب العظيم
الذي قال المقرئ عنه إنه يتسع لألف ألف من الناس فلا يكون فيه
أحد إلا وهو ينظر وجه صاحبه ثم إن قرأ كتاب سمعوه جميعا أو لعب
لون من اللعب رأوه عن آخرهم لا يتظاهرون فيه أكثر من مراتب
العلمية والسفلة وهذا الوصف كما قال بتلر ينطبق على ميدان السباق
في خارج المدينة مما يلي الباب الشرقي .

إلى هنا ينتهي ما أردنا اثباته عن وصف الأسكندرية عند الفتح
العربي ولم نشر في هذا الوصف إلى كل شيء كما أنا لم نشر إلى مكتبة
الأسكندرية لأننا سنعالج في الفصل التالي تاريخ هذه المكتبة من
بدى تأسيسها إلى أن أبيدت .

٥ - مشكلة مكتبة الاسكندرية

أسس هذه المكتبة والمحف بطليموس الأول وزاد عليها كثيرا
إنه بطليموس فلاذ لفوس ولما مات هذا الثاني فيل إن عهد ما كان في

في المكتبة من مخطوطات مائه ألف وكانت هذه المخطوطات يرتبها
حسب الموضوعات وينظمها ويضع عليها البطاقات عالم يسمى
كاليماكوس ويعتبر المؤرخون أن متحف الاسكندرية كان في الواقع ونفس
الأمر أول جامعة علمية شهدها العالم وكان علماءها جماعة من رجال الدين لم
يقصروا بحوثهم على المسائل الدينية بل تطرقوا إلى بحث مسائل كل العلوم
العقلية وغيرها فكان هذا المتحف مجمع للعلماء يقومون فيه بأعمال التدريس
إلى جوار بحوثهم ومدوناتهم ولقد قال المؤرخ ولز إن متحف الاسكندرية
كان يمثل في الجيل الثاني ، الثالث من تأسيسه مجموعة زاهرة من العلماء
الأعلام لم تشهد مثلهم حتى أتينا في إبان عظمتها وكانت بحوثهم العلمية والرياضية
والجغرافية غاية في الدقة والضبط وكان من بين تلاميذ هذه الجامعة
إقليدس صاحب الهندسة الذي لا يجهل اسمه أي طالب صغير
وايراتوستينيس « أرطستيني » الذي قال حجم الأرض وعرف محيطها
بدقة ووصل إلى أرقام لا تختلف إلا في شيء بسيط عما وصل إليه
أعظم العلماء الآن بآلاتهم الدقيقة - وأبولونيوس الذي ألف لأول
مرة في القطاعات المخروطية - وهيباركس الذي رسم خريطة للسماء وبين
مواضع النجوم ودون حرركاتها - وهيرودس الذي اخترع أول آلة بخارية
ولقد جاء إلى الاسكندرية أيضا أرشميدس وطلب العلم في جامعته
وظل مدة طويلة يرسل بلاد اليونان - ولم تكن العناية بالبحوث الطبية
بأقل من العناية بالكيمياء والجغرافيا وكان من أشهر علماء الطب في الجامعة
هيروفيلوس الذي كان بارعا في التشريح والذي قيل إنه كان يجري تجاربه

على جنث بعض المجرمين المحكوم عليهم وإلى جوار هير وفيلوس كان يوجد جماعة من العلماء يعارضونه في دراسة التشريع ويعالجون دراسة الصيدلة والعلاج بالحقنة - ولكن هذا الازدهار العامي لم يعش أكثر من قرن وذلك لأن الدراسة فيه لم تكن مباحثة لكل الناس وكان المتحف والمكتبة الملحقة به يعتبران على حد تعبير العلامة ولز كلية ملكية ينفق فرعون على أساتذتها وطلبتها ويعينهم في وظائفهم وذلك على خلاف مدارس أتنا ومجامعها العامة التي كانت تحت رعاية الشعب ولم تكن تتأثر بمزجة الملوك وكرهيتهم للعلم أو تشجيعهم له ومن أجل ذلك ظل المتحف والمكتبة مزدهران أيام بطليموس الأول وبطليموس الثاني ثم خبا الازدهار بالتدريج في عهد أخلافهم وتسلط الكهننة على البطالسة الضعاف فلم يكديمر قرن على تأسيس المتحف حتى انطفاأت فيه جذوة التفكير العلمي الحر .

ولقد أنشأ بطليموس الأول كما قلنا مكتبة بجانب المتحف ولم تكن هذه المكتبة مكتبة فحسب بل دار نشر أيضا تشرف على كل منها الحكومة وكان إذا هبط غريب الاسكندرية بكتاب أخذ منه ذلك الكتاب ونسخت منه صور بعدد طلاب الجامعة وأساتذتها ثم حفظت النسخة الأصلية ووضعت مع الكتب وأعطى نسخة بدلها - وقد كان ملحق بالجامعة جيش من النساخ ينسخون الكتب الذي تفيد الشعب ويبيعونها له ويتولى الاشراف على كل هذا أمين المكتبة كاليماكوس الذي أشرنا اليه والذي ظل يدير المكتبة

وينظمها في عهد بطليموس الثاني والثالث ويجب أن لا يعزف عن
 بالنا أن الكتب في ذلك العصر لم تكن على غرار كتبنا الآن ذات
 صفحات بل كانت لفائف تطوى على أساطين صغيرة وكانت المؤلفات
 الكبيرة توزع على عدة لفافات وكم يؤم مكتبة الاسكندرية عدد
 اصغح من الذين يجلسون الى الاساتذة في المنحف ويهرع اليها من
 كافة أطراف الأرض زوار وطلاب كان ايواءهم يدرأه الخبز الكثير على
 سكان الاسكندرية - ولقد قلنا أن عدد المجلدات في المكتبة وصل
 الى مائة الف عند موت بطليموس الثاني ونزبد هنا أن العدد أخذ
 يتضاحم حتى بلغ في أول عهد كليوباترا أكثر من ٧٥٠ الف مجلد
 ولقد أحرق كل ذلك العدد في عهد يوليوس قيصر وحزنت كليوباترا
 لذلك حزنا شديدا فأهداها أنطونيوس مائتي ألف مجلد هي أهم ما كان
 في مكتبة برجا من في آسيا الصغرى فكان هذا العدد نواة مكتبة
 الاسكندرية الثانية

ولقد أشرنا في الفصل الأسبق إلى معبد السرابيوم الذي بناه
 بطليموس سوطر وأقام في وسطه تمثال الآله سيرايديس (أوزيريس
 أيس) وكان هذا المعبد يقع في حي رافوده إلى الغرب من الاسكندرية
 على مقربة من عمود السوارى وقلنا إن هذا المعبد كان يضم مجموعة من
 أجمل أبنية العالم وتماثيل الفذة والتحف الفنية الرائعة
 فخطمه ثيوفيلوس بطريق الاسكندرية المسيحي المتعصب في عهد
 ثيودوسيوس الثاني وثيوفيلوس هذا هو الذي قال فيه المؤرخ جيبين إنه

كان عدو السلام والفضيلة وكان يغمس إحدى يديه في التبر والأخرى في الدماء وكانت مكتبة السراييم هذه تضم ثلاثمائة ألف مخطوطا هي التي قيل أن عمر ابن العاص أحرقها بأمر الخليفة عمر سنة ٦٤١ م والتي كانت من الكثرة بحيث ظلت حمائم الاسكندرية تحرق فيها ستة شهور متتالية وهذه الرواية الأخيرة هي التي نريد أن نناقشها في هذا المكان ويجب أن نلاحظ أن قصة حرق المكتبة لم تذكر في المراجع القبطية ولا الرومية ولا الاسلامية القريبة العهد بالفتح ولكنها ذكرت بعد تمام الفتح بستة قرون وكان أول من ذكرها أبو الفرج ابن العبري في تاريخه مختصر الدول وتناخص القصة التي أوردها أبو الفضل وتلقفها من بعده أبو الفداء وعبد اللطيف البغدادى والمقرئزى فيما يأتى :-

كان من بين أهل الاسكندرية رجل يسمى يوحنا الغراماطيقى والظاهر أنه كان من قسوس القبط وأنه أخرج من عمله لزيغ في عقيدته وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد في حصن بابليون وقد أدرك الرجل عصر الفتح العربى وشاهد دخول العرب الاسكندرية واتصل بعمر وفاقى عنده حظوة وأعجب عمرو بغزارة علمه ووفرة ذكائه ، فلما أنس الرجل من عمرو ذلك الاقبال قال له يوما لقد رأيت المدينة كلها وختمت على ما فيها من التحف ولست أطلب إليك شيئا مما تنتفع به بل شيئا لا نفع له عندك وهو عندنا

نافع واستوضحه عمرو مقصده فقال إنه يطلب ما في خزان الروم من
 كتب الحكمة فقال عمرو إن ذلك أمر لا أستطيع أن أقطع برأى فيه
 دون إذن الخليفة وأرسل عمرو إلى الخليفة كتابا فرد عمرو-- را قائلًا أما
 ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء فيها يوافق ما جاء في كتاب
 الله فكتاب الله يغنينا عنه وإذا كان يخالفه فلا أرب لنا فيه وتضيف
 بعض الروايات على كلام عمر قوله فاحرقها فلما جاء هذا الكتاب إلى
 عمرو أمر بالكتب فوزعت على حمامات الأسكندرية لتوقدها فإزالوا
 يوقدون بها ستة أشهر ثم قال المؤلف فاسمع وتعجب-- هذا هو ملخص
 القصة التي ذكرت لأول مرة في الكتب عن حريق الأسكندرية ولم
 يتعرض قبل أبي الفرج مؤرخ واحد لذكرها حتى إن أفتيكيوس
 بطريق الأسكندرية مع توسعه في الكلام على استيلاء المسلمين
 على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة
 وقد أشار عبد اللطيف البغدادي في كتابه الافادة والاعتبار إلى
 قصة الحرق دون أن يتعرض لشرحها وإليك نص ما قاله « ورأيت
 أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة وبعضها
 مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف
 وعمود السواري عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس
 فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التي بناها الأسكندر
 حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص
 باذن عمر رضى الله عنه .

وفي المقرئى عند الكلام على عمود السوارى مانصه ! ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمّل رواق أرسطاطاليس الذى كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب أحرقها عمرو بن العاص بإشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد تصدى جمهور من المؤرخين الأوربيين بعد ترجمة كتاب أبى الفرج إلى اللاتينية الى القصّة فأخذوا يشيعونها ويظهرون بغضهم واحتقارهم للمسلمين - ومن المؤرخين المصريين الذين تناولوا هذه القصّة أيضا جورجى زيدان فقد أيدها أولا ثم عاد فنتقضا وعاد فأيدها مرة ثانية .

ويؤمن بصحة القصّة أيضا العلامة بدج وهو بفند أفوال جيبين ورينودوت اللذان يرفضانها ويعتبرانها غير معقولة ولا يرى سببا داعيا لرفضها ويقول إن الحجة التى يدلى بها جيبين من أن المكتبة انتهت ودمرت فى الوقت الذى يتوفى لوس بطريق الاسكندرية دمر فيها تمثال سيرابيس لانعتبر برهانا كافيا وأن الراجح أنها ظلت سليمة الى وصول عمرو بن العاص الى الاسكندرية وعلى الرغم من وجـود أفراد قلائل يؤيدون هذه القصّة إلا أن السواد الأعظم من المؤرخين يرفضها .

فالأستاذ موير يقول فى كتابه تاريخ الخلافة ان قصّة حرق مكتبة الاسكندرية اخترعت فى عصر متأخر والاستاذين بول يقول

م - ٩ - تاريخ مصر الإسلامية

مانعه : ان قصة تدمير مكتبة الاسكندرية وتوزيع كتبها على
 أربعة آلاف حمام لا توجد في المراجع القديمة فلم يشر اليها مؤرخ يوناني
 ولم يذكرها يوحنا النعتموسي ولا ابن عبد الحكم ولا الطبري وأنها إنما
 ظهرت في القرن الثالث عشر أي بعد ستمائة سنة من فتح الاسكندرية
 وظهرت في مؤلفات عبد اللطيف والبغدادى ثم قال انها تخالف تمام
 سياسة عمرو التي وصفها حنا النعتموسي بأنها كانت سياسة حماية ويقول
 أن القصة ربما ترجع في أصلها الى تدمير كتب المجوس أثناء الفتح
 العربي لفارس - وقد عقد كتاب تاريخ العالم للمؤرخين فصلاً جعل
 عنوانه حريق مكتبة الاسكندرية المزعوم نقل فيه ما أورده جيبين في
 كتابه عن الدولة الرومانية وقد أورد فيه النص الذي ذكره أبو الفرج وأشير
 إليه آنفاً وكان مما قاله أنه ليس من العقول أن نعتد على مرجع واحد
 كتبه غريب في أطراف ميديا عن حادث لم يشر اليه مؤرخين من عصره
 سابق بعضهم مسيحيين وبعضهم مصريين وأقدمهم البطريق
 أوثيميوس - ايثيكيوس - الذي وصف فتح الاسكندرية وصف
 مسيحي وإن الحكم الذي ينسب إلى عمرو ليخالف ما عرف عن المسلمين
 من أهل السنة الذين أعلنوا أن كتب اليهود والمسيحيين يجب أن
 لا تسلم إلى النيران وأن للمسلمين أن ينتفعوا بكتب العلم والشعر والتاريخ
 والفلسفة ولما استعبد إلى المذكوراه الكوارث التي حلت بمكتبة
 الاسكندرية ولا النيران التي أشعلها قيصر أثناء دفاعه عن نفسه و
 التعصب الذي حمل المسيحيين على تحطيم كل آثار الوثنية ولما

استعرضنا التاريخ من عهد الانطونين إلى عهد ثيودوسيوس لوجدنا
سلسلة من الشهود المعاصرين تؤيد أن القصر الملكي ومعبد سير بيس
لم يعودا يحتويان الأربعمائة أو السبعمائة ألف مجلد التي جمعها البطالسة
في أيام زهاتهم .

ونقض مؤرخون آخرون غير جيبين للقصة أيضا ومن بينهم
بعض المعروفين بكرهيتهم للمسلمين ومن بينهم إرنست رينان
الفرنسي الذي روى الأستاذ كرد على في كتابه الاسلام والحضارة العربية
أنه قال من خطاب له في الجمع العلمي الفرنسي ان العلم والدين الاسلامي
لا يجتمعان يبيد أنه لا يعتقد أن عمرا هو الذي أحرق خزانة
الاسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمان طويل - وورد أيضا في كتاب
الاسلام والحضارة لكرد على أن بونيه موري في كتاب الاسلام
والنصرانية في افريقية قال ما نصه ؟ يجب أن نصحح خطأ شاع في
طول القرون الوسطى وهو أن العرب أحرقوا خزانة الاسكندرية
بأمر الخليفة عمر والحال أن العرب في ذلك العصر كانوا أشد إعجابا
بعلوم اليونان وفنونهم من أن يقدموا على عمل كهذا كما أنه معلوم من
أن قسما من تلك الخزانة كان احترق في أثناء ثورة الاسكندرية التي
باد فيها أسطول قيصر (٤٧ ق . م) وأن قسما آخر أحرقه النصارى في
القرن الثالث واختلط العرب الفسطاط وتركوا للقبط منفيس ولم
يتعرضوا لهم في دينهم وعاداتهم وأطلقوا لهم الحرية في انتخاب
البطريرق وبناء الكنائس وغاية ما أبطل عمرو من العادات القديمة هو

ما كانوا جارين عليه من زمان الوثنيين من رمى فتاة في النيل كل
مئة المماسا لفيضانه

ويرى بطل أن قصة الحرق قد ورد مثلها في شأن إحراق كتب
الفرس وأن أبا الفرج نقلها وعزاها الى الاسكنـدرية وأن شعور
المسالمين نحو كتب الفرس الوثنيين يخالف شعورهم نحو كتب
المسيحيين وقد جمع بطل في الفصل الذي عقده مكتبة الاسكندرية
أدلة على دحضها وأبطال هذه القصة ناخصها لك فيما يأتي

١ - ان قصة الحرق لم تظهر إلا بعد نحو ستة قرون من وقت
الحادثة التي تذكرها وان الخلاف بين من ذكروها بعد هذه المدة عن
مدة الأبقاء بالكتب يضعف من صحة القصة

٢ - ان القصة ولو انها خلاصة المظهر والرد الذي بعث به عمر أمثبه
شيء بكلامه إلا أن ما تضمنته بعد تحليل أو فحصها من سخافات يجعلها
مستبعدة لا يطمئن اليها العقل وهو يرى أن عمرا لو أراد
إحراق الكتب لأحرقها حيث هي في فترة قليلة بدل توزيعها على
حمامات الاسكندرية مدة ستة شهور وأن المادة التي صنعت منها الكتب
كانت في معظمها من الرق البردي والرق لا يصلح الوقود وفوق هذا
فإن التخصيص الحسائي البسيط على فرض أنها كانت من ورق البردي
يجعل عدد الكتب وعدد الحمامات وعدد الأيام التي أحرقت فيها يجعلها
شئنا مضحكا لا يقبله العقل .

٣ - إن الرجل الذي تذكر القصة أنه كلن أكبر عامل فيها وهو

حننا فيلوبيونوس « الغراماطيقى » مات قبل زمن الفتح بأربعين سنة تقريبا .

٤ « إن القصة تشير الى واحدة من مكتبتين الألى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر « ٤٧ ق م » يؤيد ذلك ما أورده بلوتارك إذ قال إن قيصر لما رأى أسطوله يقع في يد عدوه اضطر أن يدفع الخطر بالحريق فامتدت النار من المراسى فى الميناء فأحرقت المكتبة - وأما الثانية وهى مكتبة السرايوم التى كانت نواتها مكتبة ملوك برجاموس التى منحها مارك أنطونى لكليوباترا وهذه إما أن تكون قد نقلت من معبد السرايوم قبل سنة ٣٩١ م وإما أن تكون قد هلكت وتفرقت كتبها فى النصف الثانى من القرن الرابع على يد تيوفولوس الذى هدم معبد سراييس سنة ٣٩٠ م كما هدم القيصريون قبل ذلك فى أثناء نضال دينى مع عبدة الأوثان المصرية القديمة وعلى أى حال فإن هذه المكتبة قد اختفت قبل الفتح العربى بقرنين ونصف من الزمان .

٥ « وأكبر دليل على اختفاء هذه المكتبة أن كتاب القرنين الخامس والسادس لم يشيروا إلى وجودها وكذلك كتاب الصدر الأول بين القرن السابع .

٦ « أن هذه المكتبة لو كانت موجودة عند الصليح الذى عقده قيسر مع العرب لكان من المؤكد أن ينقاهم الرومان وقد أبيع لهم أن ينقلوا فى مدة الهدنة ما يشاءون من أموال ومتاع ولم تكن الهدنة قصيرة

لم تسمح بنقل الكتب بل كانت طويلة مدتها أحد عشر شهرا تسمح
بنقل أضعاف اضعاف هذه الكتب الثمينة

(٧) أن العرب لو أنهم أتلفوا المكتبة لما أغفل ذلك كاتب من
أهل العلم كحنا النقيوسي الذي ضمن ديوانه الأخبار المفصلة عن
حوادث الفتح التي لم يفصل بينها وبينه إلا خمسين عاما

- «الباب الخامس» -

- الفسطاط - جامع عمرو - خليج أمير المؤمنين -

«الفسطاط»

لا شك أن المسلمين بعد فتح مدينة الاسكندرية التي وصفنا
عظمتها وأثرها في نفوس العرب في الباب السابق كانوا يطمعون في
أن يتخذوها دار إقامة لهم وعاصمة للمستعمرة الجديدة ولكن
خطوة كهذه ما كان عمرو يستطيع الأقدام عليها بدون أن يأخذ من
الخليفة إقرارا بهذا فكتب اليه يستشيره في الأمر إذ قال إني لأحب
أن تنزل المسلمين من لا يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفا فمتى
أردت أن أركب اليكم راحتي حتى أقدم اليكم قدمت ويصف له المدينة
وكان رسوله معاوية ابن حديج ورد الخليفة ردا عرف منه عمرو أنه
لا يوافق على أن يطوخ بالمسلمين في هذا المكان البعيد الذي يفصله عن
بلاد العرب شبكة من الأنهار والترع، ويقول مساكين قد كفيتموها وكان

المعروف عن الخليفة أنه يريد أن يكون دائما على اتصال سهل بالسلاطين
 في البلاد المفتوحة ، فعل هذا بالعراق ، وفعله بالشام ، وهو الآن فعله
 بمصر ، ومن أجل ذلك اضطر عمرو إلى البحث عن موضع آخر صالح
 لأن يكون عاصمة للحكومة الجديدة ؛
 وقد بينا في القصول السابقة أن العرب قد اتخذوا لهم مركزا
 حرييا في الفضاء الذي يقع إلى الشمال والشرق من حصن بابليون وسط
 الخدائق والكنائس ونذكر هنا أن عمرا عندما بدأ في التحرك لفتح
 الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه ، فاذا فيه يمامة قد فرخت ، فقال
 عمرو ، لقد تحرمت منا بحرم ، فأمر به فأقر كما هو ، وأرضى به صاحب
 القصر ، فلما قفلوا من الاسكندرية قالوا أين نزل ، قالوا الفسطاط ،
 يعنيون فسطاط عمرو الذي خلفه بمصر ، مضروبا لأجل اليمامة فقلب
 عليه ذلك ، وكان موضع الفسطاط المذكور ، موضع الدار التي تعرف
 اليوم بدار الحصار ، عند دار عمرو الصغيرة بمصر ، ذكر هذا ابن
 قتيبة برندي في كتابه ، وعلمل به سبب تسمية مصر بالفسطاط ،
 وذكر مؤرخون آخرون من بينهم ياقوت ، أوزان أخرى لهذا
 الاسم ، منها : الفسطاط والفسطاط ، ووسطاط وفسااط
 بضم أوائلها جميعا أو كسرهما ولا يمكن بعض المؤرخين يرى
 أن هذا الاسم لا علاقة له بفسطاط عمرو ، وأن اللفظ إنما هو مشتق
 من الكلمة الرومانية « فساتم » وهو لفظ روماني كان شائعا في وقت
 الفتح على المفسكر وكان الرومانيون في حصن بابليون إذا ذكروا

مفسكر العرب سموهم الفساطون فأخذ عنهم العرب ذلك اللفظ - فسواء أكان رأى هؤلاء أم أو أنك هو الصحيح، فإن تشابه اللفظ العربي مع اللفظ اليوناني هو بلا شك مصدر الخلاف في سبب تسمية هذه المدينة التي تعتبر أول مدينة إسلامية أسست في مصر - فلقد قال المقرئ - إن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مصر، فيما بين النيل والجبل الشرقى، الذى يعرف بالجبل المقطم، ليس فيها من البناء والعمارة، سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع، وبالمعلقة، ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القاصرة ملوك اروم عند نزوله من مدينة الاسكندرية ويقيم فيه ما شاء ثم يعود إلى دار الامارة ومنزل الملك من الاسكندرية، وقد حدد علماء الآثار موقع الفسطاط القديمة فقالوا: انها كانت تمتد شرقا حتى قرب صفح المقطم، وشمالا حتى جهة فم الخليج، وغربا حتى النيل وجنوبا حتى ساحل أثر النبى ويتوسطها جامع عمرو أو المسجد العتيق الذى انتهككم عنه فى الفصل الثانى.

والرأى الشائع بين جمهور المؤرخين، والى تؤيده الروايات، أن الفسطاط بنيت بعد فتح الاسكندرية، وليسكن بعض المؤرخين دكالبلادى يرى أنها بنيت بعد فتح حصن بابليون، ويرجح بطلان بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية، وقبل جلاء الروم عنها وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وذات شأن كبير عندما قضى عمر، بعدم المقام فى الاسكندرية، وهو يستبعد أن تكون المدينة قد

جعلت على اختطاطها مدينة عظيمة ، أو أنه كان يقصد منها أن تكون
عاصمة للمسلمين ، وأنه إنما اضطر إلى البناء خارج أسوار حصن بابلون
لإساءات حبال الجنود في الحصن ونقص عليهم عيشهم ، فرأى أنه
ليس من العدل ولا من المستحسن أن يخرج المسلمون أهل مصر
من ديارهم ليحلوا محلهم ، وساعد على البناء خارج الأسوار ، أن الحرب
قد وضعت أوزارها ، وأن المسلمين قد أمنوا الكيد أن يأتيهم من
جانب ذلك الاقليم .

لا شك إذا أن الفسطاط نشأت بلدة صغيرة ولكنها لم تلبث
بمرور الأعوام أن نمت نموا سريعا ، حتى بلغت في خلال الخمسة قرون
التي تلت انشاءها في سنة ٢١ هـ مبلغا من الحضارة والمدينة عظيما ،
فاختطت فيها الشوارع والعمارات ، والميادين الفسيحة ، والبساتين
الناضرة ، وشيدت فيها المباني الفاخرة ، من مساجد ، ومدارس ،
وحمامات ، وخانات ، وفنادق ، وأسواق ، ودور للصناعة والتجارة ،
وعدا ما أقيم فيها من القصور العامرة التي تفوق حيد الوصف ، والتي
جعلت المدينة من أمهات المدن الإسلامية ، وما زال أمرها كذلك حتى
أصابها حريق هائل في سنة ٥٦٧ هـ دام بهارها شهرين فدفن تحت
أطلالها كثيرا من مدهشات الصناعة والعمارة العربية ، واستحوالت إلى
أكوام من التربة ، لا ينتفع إلا بسمادها وما عسى أن يوجد فيها أو
على مقربة من سطحها من مواد البناء ، وما زالت كذلك حتى أتيح لها
في أوائل هذا القرن أن تكشف مصلحة الآثار العربية عن بعض

أنقاضها فكشف العالم الأثرى على بك بهجت بين سنة ١٩١٢: ١٩١٩م
عن نحو الحسين دار إقامة كلها على الصخر مباشرة وهي حسنة التنسيق
مختطة على نظام هندسي يوفر لها الضوء والهواء ، ولا تخلو هذه الدور
التي كان بعضها مشيد بالآجر وبعضها بالحجارة من حديقة ونافورة ماء
وهذا عدا ما استكشف من بقايا بعض معاصر الزيوت والكنائس
وجزء من سور صلاح الدين « راجع الفسطاط للأستاذ حسن الهواري
ومدينة الفسطاط للأستاذ يوسف احمد » والفسطاط على بك بهجت
ظلت الفسطاط مقرا للحكم في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ؛
وكان قلب المدينة حيث جامع عمرو تقوم حوله الأسواق ، والمصانع ،
والحمامات ، والخانات ، ونحوها من أسباب العمران ، وكانت في مبدأ
أمرها مقسمة إلى قسمين شمالي وجنوبي ، وكل منهما مقسم إلى قسمين
شرقي ، وغربي ، وقد اختط عمرو بجوار الجامع داره الكبرى وكان
يقصّل بينهما طريق ، ثم اختطت القبائل بعده خططها وهي أحياء
منفصلة كانت بيوتها في باديء الأمر طبقة واحدة ساذجة ثم أخذت
الدور تزداد في الاتساع والعلو شيئا فشيئا حتى صار ارتفاع أغلبها
من خمس إلى ست طبقات يسكن الدار منها عدد يقرب المائتي شخص
وكان أسفل الدور أو الطابق الأرضي يتخذ مخازن لعدم جفافه وقلة وصول
الشمس والضوء إليه وقل أن كانت تخلو دار من حديقة في داخلها أو بر
وأحواض خزن المياه وبركة « فسقية » وكان أشهر الخطط في أول
عهد المدينة ، خطة أهل الراية « وهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم

من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو راية لم ينسبها
إلى أحد يكون وقوفهم واجتماعهم تحتها ، وخطه مهره ، وخطه تجيب
وخطط خيم ، واللفيف ، ويحصب ، وبنى وائل ، القبط ، والمعاقرة ،
والسلف بن سعد ، وعلان ، وخولان ، ومذحج ، ورعين ، وبنى الكع
والصدف ، وسبأ ، والرجبة ، والفارسين « بقايا جند باذان عامل كسرى
على اليمن الذين حضروا فتح مصر » وأهل الظاهر ، وغافق ، والحراوات
الثلاث ، الدنيا - والوسطى والقصوى ، « راجع تفصيلها في الجزء الثاني
من المقرئى » ٦٥ - ٨٦ هـ

ولم يكن للولاية في الفسطاط دار خاصة للحكم إلى أن ولى مصر
عبد العزيز بن مروان فبنى قصرا أسماه المدينة لكبره واتساعه حتى
قبابه بالذهب - وفى أثناء مطاردة العباسيين لمروان الحمار آخر خلفاء
بنى أمية سنة ١٣٣ هـ جاء إلى مصر أبو عون وأبو صالح قائداجيوش
العباسيين فأسسا مدينة فى الشمال الشرقى من الفسطاط أطلق عليها
العسكر ، وشيد أبو صالح فى وسطها قصرا دعاه دار الامارة وقد
كشفت دار الآثار العربية بعض بقاياها بناحية أبى السعود فانخذ
الولاية العباسيون لسكنهم إلى زمن أحمد بن طولون - ولما ولى أحمد
ابن طولون حكم مصر سنة ٢٥٤ هـ انخذ دار الامارة التى بناها أبو صالح
مقراله ، ولكنه ما لبث أن رأى أن الفسطاط والعسكر لا تتسعان
لجنده وحاشيته فبنى قرب الجبل المسحى بجبل يشكر القائم فى الجهة
الشمالية الشرقية من العسكر مدينة سماها القطائع وبنى جامعها فوق

جبل يشكر وشيد فيها قصرًا وميدانًا فسيحًا، واتخذها مقرًا لحكومتها
 وقد هجر اسم العسكر بعد ما بذت القطائع وإن كانت المباني في
 القطائع قد اتصلت بالعسكر - وفي سنة ٢٩٢ هـ زالت الدولة الطولونية
 ورجعت مصر لحكم العباسيين فخرّب الوالي العباسي محمد بن سليمان
 القصر والميدان وعاد الولاة العباسيون إلى العسكر فاتخذوها مقرًا
 لحكمهم - وفي عهد الدولة الاخشيدية اتصلت عمارة القطائع بالعسكر
 ووصلت هذه بالفسطاط ، وأطلق عليها جميعها اسم مصر وسكنها
 الأمراء إلى أن قدم جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي
 فاختط مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ واتخذها الفاطميون مقاما خاصا لهم
 وحواشيهم ، أما التجار والصناع والعمال ، فقد بقوا في مصر (أى في
 الفسطاط - والعسكر - والقطائع) وقد ظلت هذه المدن الثلاث الأخيرة
 زاهية في أوائل العهد الفاطمي ، ثم أخذت تضئول وتقلص كلما تسعت
 القاهرة الفاطمية إلى أن عفت وأنى عليها الدثور سنة ٥٦٤ هـ ورجع
 ما لحقها من الدمار إلى أمرين : - الأول - القحط الذي اجتاح البلاد
 في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر « ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ » الذي استمر سبع
 سنوات من ٤٥٧ - ٤٦٥ هـ قاست فيه الفسطاط أكثر مما قاست المدن
 الأخرى والامر الثاني - هو الحريق الهائل الذي أشرنا إليه آنفا ،
 والذي أشعله شاور وزير الخليفة العاضد ، حتى لا تنفع في يد أموري
 القائد الصليبي سنة ١١٦٨ م « راجع أيضا رسالة الفسطاط للهوارى »
 ويلاحظ في تطور العاصمة أن المدن والزيادات التي كانت تنضم

اليها كانت تمتد الى الشمال الشرقى والشمال وهذا طبيعى فى جو كهو
مصر يساعده أيضا ان الامتداد الى ناحية الشرق يمنعه وجود الجبل
والبعد عن النيل .

وكان آخر امتداد للمدينة فى ناحية الشمال هو تأسيس هي العباسية
فى أواخر القرن الماضى ، وتأسيس مصر الجديدة فى أوائل هذا القرن ،
ويقال ان الحكومة تنقوى اذا وانتهى الظروف تأسيس مدينة من
الشمال من مصر الجديدة .

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر هنا ما أورده الأستاذ لين بول
عن تأسيس القسطنطينية .

لم تعد الاسكندرية عاصمة مصر كما كانت فان هذه المدينة التجارية
الكبرى كانت عرضة لأن يفصلها فيضان النيل ويقطع طريقها البرى
إلى المدينة التى كانت عاصمة الخلافة - ولم يكن الخليفة عمر يثق
أن الاستعمار سيمثل أبديا وكان يكره أن يحرم من خب ومات عمرو
وجيشه العظيم لذلك أمر الجند أن لا يشتروا أرضا أو يتوطنوا فى
مصر حتى يكونوا دائما على أهمية الاستعداد للقيام بأى حملة فى مكان
آخر ومن جهة أخرى كانت الاسكندرية رمز النفوذ الرومانى وطغيان
الكنيسة الارثوذكسية ومن أجل ذلك كانت بغية إلى الإغباط وقد
أمر الخليفة عمر أن يختار مكانا متوسطا فاختر السهل الذى كان يقع
على مقربة من بالميون والذى كان لا يبعد كثيرا عن منف العاصمة
المصرية القديمة وكان عمرو قد ضرب خيامه فى هذا المكان أثناء حصار

مصر فهنا بنى عمرو مسجده الذى لا يزال قائما فى موضعه على الرغم مما
اعتوره من تغيير وإعادة بناء

وهنا بدأ عمرو فى وضع أساس المدينة التى سماها الفسطاط - فى البقعة
التي - كما تقول الرواية - ترك فيها فسطاطه عند ما تحرك إلى الشمال
لفتح الاسكندرية لأنه لم يرد أن يسمح لفراسيه أن يزعجوا الهمام
الذى كان قد بنى عشه هناك - وقد ظلت الفسطاط عاصمة مصر أكثر
من ثلاثة قرون إلى أن أسست القاهرة على مقربة منها فى سنة ٩٦٩م
وحى بعد ذلك الوقت ظلت الفسطاط العاصمة التجارية تميزا لها عن
العاصمة الرسمية حتى حرق أثناء الحروب الصليبية عند غزو الملك
أملريك فى سنة ١١٤٨م - قال المقرئى فى الجزء الثانى من خطه
وهو أشهر مرجع لنا فى الطبوغرافيا المصرية يعتمد عليه ما نصه ؟
إعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء
ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى ليس فيه من البناء والعمارة سوى
حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة (حاكم)
الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من
مدينة الاسكندرية وكان هذا الحصن مطلا على النيل وتصل
السفن فى النيل إلى بابه الغربى وكان بجوار هذا الحصن من
بحريه وهو الجهة الشمالية أشجار وكروم صار موضعها المسجد العتيق
« جامع عمرو » وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات
للنصارى ؟ وقد ازدهرت العاصمة الجديدة بسرعة واتسع نطاقها

فمرعان ما أصبحت واحدة من أمهات الامبراطورية الاسلامية - اه
ما أورده ابن بول

٢ - جامع عمر

هو أول مسجد أسس بمصر ، ويقال له أيضا الجامع العتيق ،
وجامع الفتح وتاج الجوامع ومسجد أهل الراية وكان سبب انشاءه ما كتبه
الخليفة عمر إلى عماله أن يتخذ كل منهم مسجدا للجماعة وأن لا يبنوا
في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر ، وأن يجعلوا للقبائل
مساجد فادا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة - فبنى عمرو
ابن العاص هذا المسجد في سنة ٢١ هـ على أن لا تعرف تماما بسبب
اختلاف الروايات هل بدأ في بناء المسجد قبل تخطيط الفسطاط ، أم
بنى بعد تخطيطها على أن الرواية الثانية يرجحها ما أورده ابن تغربردي
وغيره من أن موضع المسجد كان خانا يملكه قيسبه بن كلثوم التجيبي
وأنه تصدق به على المسلمين لما تشاوروا أين يكون موضع المسجد
وانفقوا على أن يكون محل خان قيسبه أو داره على حد تعبير
الروايات .

وقد ذكر بئر أن أنشاءه كان في الشتاء من سنتي سنة ٦٤١ سنة
٦٤٢ م وقد أختار عمرو له ثلثه الموضع الذي كان فيه لواؤه وصار يعرف
باسم مسجد أهل الراية (أشرنا مسبقا إلى أن أهل الراية كانوا
بعض البطون الذين لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفر دبه بدعوة

من الديوان فجعل لهم عمرو راية ولم ينسبها إلى أحد، وكان ذلك
الموضع بين بساتين وكروم على شاطئ النهر والذي أسس المسجد وحرر
قبله جماعة من الصحابة - اختلف الرواة في عددهم فقال بعضهم كانوا
ثمانين ، قال آخرون كانوا ثلاثين ، وذكر أنهم كانوا ثمانية ، وقيل أربعة
ولا يمنع أن يكون حضر ثمانون من الصحابة وضع أساس المسجد من
بينهم الزبير والمقداد بن الأسود ، وأبو الدرداء ، وعقبة بن عامر ،
وعباد بن الصامت وحرر قبلته أربعة من الصحابة كان أحدهم أبو ذر
الفارسي ولكنهم لم يضبطوها تماما فكان عمرو إذا صلى في الجامع يصلي
ناحية الشرق إلا الشيء اليسير .

وورد في بعض النصوص أن جماعة من القبط هندسوا معهم الجامعة
ولكننا نستبعد ذلك لأن بناء المسجد وكل المدينة كان من السداجة بحيث
لا يحتاج إلى الاستعانة بمهندسين أو معماريين ولم يكن للمسجد الذي
بناه عمرو محراب مجوف وأول من بناه قرعة بن شريك ، وكان المسجد
من الضيق بحيث لم يتسع لكل المصلين فكانوا يصلون في الطريق
المحيط به ، وذكر السيوطي أن عمرا اتخذ منبرا فكتب إليه الخليفة
الكتاب الآتي :

أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين
أما حسبك أن تكون قائما والمسلمون تحت عقبك فعزمت عليك
إلا ما كسرته .

وكان البناء الذي أسسه عمرو طوله خمسون ذراعا في عرض ثلاثين

والطريق يطيف به من كل جهة وجعل له بابان يقابلان دار عمرو وبابان في بحريه وبابان في غريبه ، وكان سقفه مطاطئا ولا صحن له فاذا كان الصيف جلس الناس بفنائنه من كل ناحية .

ونحن نورد هنا وصف المسجد كما ذكره لين بول في كتابه : لم يبق من البناء الاصل شيئا ، وقد كان هذا البناء حجرة مستطيلة بسيطة طوله ٢٨ و ٩ متر : عرضه ١٧ و ٣ متر وكان سقفه المنخفض بلا شك يعتمد على بعض الأعمدة القديمة . . ومن المحتمل أن جدرانها كانت من الآجر ولكن يرجح جدا أنها كانت من اللبن ولم تكن مبيضة ، أما الأرض فقد فرشت بالحصباء ، ومن المحتمل أن النور كان يصل اليه كما هو الحال في الأبنية ذات الأعمدة الكثيرة في الوقت الحاضر من فتحات مربعة في السقف ؛ ولم يكن به محراب ، ولا أى زخرف في الداخل في هذا البناء المتواضع كان فاتح مصر ونائب الخليفة يؤم الناس في الصلوات العامة ويخطب وهو واقف على الأرض لأن الخليفة حظرت إقامة المنابر ؛ وكانت دار عمرو تقع قبالة المدخل الرئيسى للمسجد .
لين بول .

ذاك كان الوصف الذى أورده لين بول لأول مسجد أسس في مصر والذي وضعه بأنه كان لا يعدو أن يكون حجرة واقما للفائدة نورد هنا فى شىء من الاختصار الزيادات التى دخلت على المسجد فى العصور المختلفة فى سنة ٥٥٣ هـ .

م - ١٠ مصر الإسلامية

زاد فيه مسامحه بن مخلد عامل معاوية من الناحية الشمالية ما يقرت
من مساحة البناء لأصلي ، وجعل له وحية أمام هذه الزيادة «الرحبة»
قطعة ملحقة بالمسجد ليست محلا للصلاة وغير مستقوفة ، ويبيضه
وزخرف جدرانه ومستقوفه وأقام فيه أربع صوامع صغيرة يصعد إليها
من خارج المسجد في أركانه الأربعة وفرشه بالحصير بدل الحصباء
وزاد فيه من شرقيه حتى ضاق الطريق بينة وبين دار عمرو .

وفي عهد عبد العزيز بن مروان هدم المسجد كله وزاد فيه من
الناحية الغرب وادخل فيه الرحبة التي أقامها مسامحة .

وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك رفع سقف المسجد وكان مطاطنا
وفي عهد قرة بن شريك هدم المسجد سنة ٩٢ هـ بأمر من الوليد
وزاد فيه من الناحية القبليّة ومن الناحية الشرقيّة بحيث ادخل جزء
من دار عمرو ودار ابنه عبد الله في بنائه ونصب له منبرا وجعل للجامع
أحد عشر بابا ، أربعة من الجهة الشرقيّة ، وأربعة من الجهة الغربيّة ،
وثلاثة من الناحية البحرية وقيل إنه حمل إليه من بعض كنائس مصر
هذا ما تم في عهد الأمويين من زيادة .

أما ما تم في عهد العباسيين فأهمه زيادة صالح بن علي في سنة ١٣٢ هـ
فيه من الناحية البحرية وزيادة موسى بن عيسى في سنة ١٧٥ هـ فيه
من الناحية البحرية أيضا .

وزيادة عبد الله بن طاهر في سنة ٢١٢ هـ فيه من الناحية الغربيّة
وهي زيادة كبيرة جعلت مساحة المسجد الضعف تقريبا .

وفي سنة ٢٣٧ هـ زاد فيه الحارث بن مسكين رحبة وأصلح بنيان السقف.

وفي سنة ٢٥٨ هـ زاد فيه أبو أيوب الرحبة المعروفة باسمه .
ثم توالى الزيادات بعد ذلك فزاد فيه خمارويه بن أحمد بن طولون ، وأبي حفص العباسي ، وأبي بكر محمد ولم تطرؤ على المسجد زيادات تذكر بعد ذلك إنما كان ما يحدث هو إصلاح وتحسين وتنميق نذكر أسماء أهم الأشخاص الذين تناولوه بحسب ترتيب التاريخ وهم :
الحاكم بأمر الله الفاطمي ، المستنصر بالله ، صلاح الدين الأيوبي الظاهر بيبرس البندقداري ، السلطان قلاوون ، السلطان قايتباي ، مراد بك ، وفي وقتنا هذا قامت وزارة الأوقاف أولا ، ولجنة حفظ الآثار العربية وبهذه المناسبة نذكر إن المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول رحمه الله قد أمر بإجراء مسابقة عالمية لأحسن تصميم يعيد المسجد لعصر زهائه الأول وذلك احتفاضا بشهرته التاريخية العظيمة .
ويجب أن نذكر هنا أيضا حال الحقيقة والتاريخ أن الأعمدة الكثيرة التي تحيط بصحن الجامع في الوقت الحاضر ليست من طراز واحد ولا من حجم واحد اذ إن حكم مصر من أيام الأمويين إلى أيام المماليك لجأوا إلى نقل الأعمدة من المعابد المصرية القديمة والكنائس الرومانية واليونانية ، فوضعوها في هذا المسجد ، وقد كان هذا أمرا طبيعيا اذ لم يكن في عهدهؤلاء الولاة صنائع لقطع العمود الرخام أو الجرانيت ونقلها من المحاجر إلى المسجد ، ولم يذكر التاريخ أن واحدا تعفف عن نقل

الأعمدة القديمة واستعمالها في مبانيه إلا أحمد بن طولون وبمناسبة أعمدة
المسجد نذكر بعض الخرافات التي كانت شائعة حتى العصر الأخير بين
العامة عن بعض أعمدته فهناك عمود كان يضربه العامة بالعصى والنعال
بعد الفراغ من صلاة آخر جمعة من شهر رمضان ، وذلك لأنه كما تقول
الخرافة أمره عمرو بالتحرك إلى مكان المسجد فعصى فضربه بالسوط
وهناك عمودان على يسار الداخل الآن من الباب الغربي القبلي يسميان
عمودا كشف الخطايا ، كان العامة يزعمون أنه لا يستطيع المرور بينهما
إلا بإظهار الخالص من الذنوب وأن الرجل البدين الطاهر قد يسلك
بينهما ، بينما يتخلف النحيف المذنب وقد أحسنت وزارة الأوقاف إذ
أقامت حول هذين العمودين وحول العمود المسجون سياجا متينا من
الحديد لمنع استعمالها والقضاء على هذه الخرافة ثم أزيلت هي الأسيرة
أخيرا .

وقبل أن نختتم هذا الفصل عن مسجد عمرو نرى من المفيد أن
نثبت هنا نصا خطبة القاها عمرو في مسجده هذا ولعل هذه الخطبة
كانت بعد تأسيس المسجد بمدة قليلة قال : بعد حمد الله حمدا موجزا
والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
يا معشر الناس أيكم وخلالا أربعة فانها تدعوا إلى النصب بعد
الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة وإلى المذلة بعد العزة ، وأيكم وكثرة
العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقييل بعد القال في غير ذلك
ولأنوال ، ثم إنه لا بد من فراغ يؤول إليه المرء في توديع جسمه والتدبير

لشأنه ، وتخليته بين نفسه ، وبين شهواتها ، ومن صار إلى ذلك فليأخذ
 بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من
 نفسه ، فيحور من الخير عطلا ، وعن حلال الله وحرامه غافلا -
 يامعشر الناس إنه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعري ، وأقلعت السماء
 وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحواميل ،
 ودرجت السخائل ، وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر ، فحى
 لكم على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خيرهِ ولبنه وخرافه وصيده ،
 وأربعوا خيلكم وأسمنوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها
 مغانمكم وأنفالكم واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً ، وإياكم
 والمسومات والمعسولات فانهم يفسدون الدين ويقصرون إليهم ، حدثني
 عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول

«إن الله سينفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن
 لكم منهم صبرا وذمة»

فكنزوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، ولا أعلمن
 ما أتى رجل قد اسمن جسمه وأهزل فرسه ، واعلموا أنى معترض
 الخيل كاعتراض الرجل ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من
 فريضته قدر ذلك ، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء
 حولكم وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع
 والبركة النامية

وحدثني عمر أمير أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إذا فتح الله

عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض ،
فقال له أبو بكر : ولم يارسول الله ؟ قال « لأنهم وأزواجهم في رباط الى
يوم القيامة » .

فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب
لكم ؛ فاذا يبس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح
البقل وانقطع الورد من الشجر فجي الى فسطاطكم على بركة الله ،
ولا يقدم من أحد منكم ذو عيل على عياله الا ومعه تحفة لعياله على
ما أطاق من سعته أو عمرته ، أقول فولى هذا واستحفظ الله عليكم .
ولسنا في حاجة الى التعليق على هذه الخطبة فهي تفصح عن
نفسها وتصور لنا الخليفة رجلا زاهدا وعمر الشعب ناصحا أميناً
حريصا على سياسة عمر الذي كان يريد أن يجعل من العرب جيشا
قائما على أهبة الاشتراك في أى معركة الأمر الذى كان يرغب فيه عمرو
لأنه كان يعتقد أن مصر لا تستقر في يد العرب إلى إذا ضمت اليها
النوبة في الجنوب ، وبرقه في الغرب .

وننتقل الآن إلى عمل آخر عظيم كان من نتائج العرب في مصر
وهو توصيل النيل بالبحر الأحمر أو حفر خليج أمير المؤمنين

٣ - خليج أمير المؤمنين

لم تفتأ المحاولات لتوصيل البحرين الأبيض والأحمر قائمة منذ
أقدم عصور التاريخ سواء في ذلك أكان التوصيل بين البحرين مباشرة

أم عن طريق النيل نحن نلخص لك بمناسبة الكلام عن خليج أمير المؤمنين أم هذه المحاولات

كانت أقدم محاولة في التاريخ تؤيدها النصوص التاريخية إلى حد ما توصيل النيل بالبحر الأحمر عن طريق وادي الطميلات في عهد السمرتس الثالث الذي يسميه اليونان سيزوستريس من ملوك الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان وادي الطميلات واديا خصبا يمتد من شرق النيل إلى البحيرات المرة الذي كان خليج السويس يصل اليهما في العصور القديمة ؛ وقد ذكر ارسطو واسترابون وبليني أن سيزوستريس هذا هو أول من وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة - وهناك نص على جدران معبد الكرنك يشير إلى أن هذه القناة كانت موجودة في أيام سيتي الأول سنة ١٣٨٠ ق م ويمكن تعقب مجرى هذه القناة في وادي الطميلات إلى وقتنا هذا ؛ وقد تتبعها المهندسون الذين حفروا الترع العذبة في القرن الماضي -

وقد بدأ نحاو (٦٠٩ ق م) بحفر قناة مبتدئا من قل بسطة ليصل ما بين النيل والبحر الأحمر على أنقضاء قناة كانت موجودة في أيام رمسيس الثاني وتبع مجرى وادي الطميلات أيضا ولكن شراعه منى بالفشل ولم يستطع إتمامه ، وقد روى هيرودوت أن عددا لا يقل عن ١٢٠ ألف من المصريين هلكوا أثناء هذه المحاولة فوقف الملك العمل لأن عرافة أخبرته أن انبثابة أو التبريرين (الفريس) هم الذين سيستفيدون منه .

على أن هذا العمل الذي لم يتمكن من إتمامه نخاو قد تم بعد قرن من الزمان على يد دارا الفارسي (٥٢٠ ق م) ويتفق مجرى القناة التي حفرها دارا مع مجرى التربة العذبة الآن إلى حد كبير وقد خلد دارا ذكر إتمامه هذا العمل العظيم بأن أقام على جانبيه التماثيل التي عثر أخيرا على بعضها في جنوب تل المسخوطة وشمال السويس عند السرايوم وغير ذلك من الأماكن ، وكانت المراكب تأتي من البحر الأبيض فتصعد في البحر البولوزي حتى تصل إلى تل بسطة ومن ثم تتجه إلى البحر الأحمر وقد رأى هيرودوت عند زيارته لمصر هـ — هذه القناة مملوءة بالماء ووصفها بأنها كانت من السعة بحيث تنسع لمرور سفينتين وكان اتساعها يتراوح بين مائة ومائتي قدم ثم طمتها الزوابع الرملية حتى أعيد فتحها في أيام البطالسة

وفي عهد بطليموس فلادلفيرس (٢٨٥ ق م) تم توصيل القناة وأقيمت مدينة أرسنو على رأس خليج السويس من ناحية الغرب وفي أيام كليوباترا (٣١ ق م) كان قد ضاق الفرع البولوكوزي فجعل القناة غير صالحة للملاحة ، وقد ذكر استرابون الذي زار مصر قبل الميلاد أنه رأى القناة غاصة بالسفن كما أن لوتارخ وهو يصف هرب كليوباترا بعد معركة اكتيوم يقول إنها حاولت أن تنقذ البقية الباقية من أسطولها بأمرارها في القناة إلى البحر الأحمر ولكن انخفاض النيل عاقها عن إتمام ذلك

وفي أيام تراجان (٩٨ — ١١٥ م) أعيد حفر القناة لأن الفرع

البولوزى كان قد بطلت صلاحيته للملاحة نهائيا ، فحفر تراجان قناة بين بابلليون وتل بوسطة التى كان تنفرع عندها القناة الذاهبية إلى السويس . ولكن المؤرخ هول يتشكك فى حفر تراجان لهذا الفرع من بابلليون إلى تل بوسطة ويقول إن الرومان كانت لا تعدو أعمالهم التطهير والاصلاح فحسب وهو ينسب حفر هذا الجزء الى عمرو بن العاص فاتح مصر فى اقرن السابع الميلادى ومما لا شك فيه أن هذه القناة كانت مستعملة فى الصدر الأول من الحكم الاسلامى فى مصر وأنها لم تظم الا حوالى سنة ٧٧٠ م بامر الخليفة أبى جعفر المنصور ثانيا خلفاء العباسيين الذى أراد أن يمنع وصول المؤن الى بلاد العرب عن طريق هذه القناة وكانت قناة عمرو (التي يقال ان الخليج الذى كان يجوس خلال القاهرة وردم فى سنة ١٨٩٧ م جزءاً منها) تنتهى عند البحر الاحمر الى الجنوب من خليج هيروبوليت قرب مدينة السويس الحالية ولا نستطيع أن نجزم أن هذا الخليج قد أعيد فتحه ولو أن بعض الروايات تقول انه كان صالحا للملاحة فى سنة ١٠٠٠ م أيام الحاكم بامر الله الفاطمى فاذا كان الامر كذلك فلا بد أن يكون قد طم مرة أخرى وكانت بعض أجزاء القناة تملأ بالماء أيام فيضان النيل حتى أمر محمد على بردمها فى سنة ١٨١١ م ولكن الردم لم يكن كاملا إذ ظلت المياه حتى سنة ١٨٤٠ م تتدفق فى القناة القديمة من بوسطا الى النصارين وإن هذا الجزء من القناة الذى ظل مستعملا أكثر من خمس وعشرين قرناً قد استفاد منه الهندسون

الفرنسيون سنة ١٨٦١ - ١٨٦٣ م في حفر القناة العذبة التي تجرى الآن من القاهرة الى السويس - وهزه القناة تجرى في نفس الموضع الذي كانت تجرى فيه قناة عمرو أو تراجان - وفكرة وصل البحرين عن طريق برزخ السويس ترجع الى القرن الثامن الميلادي أيام هارون الرشيد الذي قيل أنه فكر في الأمر ولكنه أهمل المشروع لما افهم أنه قد يكون خطرا على سواحل بلاد العرب اذ يستطيع الاسطرون البيزنطي أن يصل اليها وتدل التواريخ على أن أهل البندقية الذي أصيبت تجارتهم بالكساد بعد كشف الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر قد فكروا في حفر قناة في برزخ السويس وعرضوا على اقتراحهم على المصريين ولكن الأتراك تدخلوا في الأمر كما أن ليبتيس أعد مشروعا مثل هذا للويس الرابع عشر سنة ١٦٧١ وقد وافق على هذا المشروع شيخ البلد على بك وعند ما جاء بونا برت الى مصر في سنة ١٨٩٧ م شهد بقايا القنال القديم ففكر في شق القناة تصل البحرين يستطيع بواسطتها أن ينقل جنوده الى الهند ليطرده الانجليز منها وقد عهد الى مهندسه ليبير بدراسة المشروع ومسح الأرض وتقديم تقرير له وأيد تقريره الفكرة التي كانت شائعة اذذاك وهي أن هناك خلاف بين مستوى سطح الماء في البحرين واليك نص ما كتبه ، ليبير مما لا شك فيه أنه بعد دراسة المساحات التي قننا بها أن الدلتا تكون معرضة للغرق بعماء البحر الأحمر وأن المخاوف التي قامت في أذهان المصريين القدماء

في حالة حفر القناة بين البحرين كان لها ما يبررها وبخاصة في الأزمنة السابقة حين كان ارتفاع الدلتا وقاع النيل اخفض بلا شك مما هو الآن وعند ما قدم ليبيير تقريره إلى بونا بورت تنبأ بونا بورت بما سيتم في كلمته

الآتية :

ان المشروع عظيم وسوف لا أكون أنا الذي أتمه ولكن ربما جاء يوم تستطيع الحكومة فيه ان تفتخر بانجاز هذا المشروع ؟ وكثيرا ما كان يشير الى هذا الموضوع وهو في منفاه في سنت هيلانه .

ومما لا شك فيه ان دراسات ليبيير المساحية كانت سـطحية او لعلمها لم تكن كاملة بسبب قلة الآلات الدقيقة لأنه ذكر ان ارتفاع البحر الأحمر يزيد بعشرة امتار او ثلاثة وثلاثين قدم عن مستوى سطح البحر الأبيض وقد اقترح في حالة القيام بعمل قناة ان تقام لها سدود وعضد تلبوت فكرة إنشاء قناة من السويس إلى القاهرة ومدّها في مجرى مائي يمر على قناطر مرتفعة فوق النيل إلى الاسكندرية وقد أثبت ثلاثة من كبار المهندسين فيما بين سنتي ١٨٤١ ؛ ١٨٤٧ م وهم استيفنصن المهندس الانجليزى المشهور للسكك الحديدية ، نيجريلى المهندس النمساوى ، وبوردالو المهندس الفرنسى بطلان الرأى القائل بوجود خلاف بين مستوى البحرين ، ولعل ما وصل اليه هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المهندسين الآخرين الذى حدا بفرديناند دلسبس المهندس الفرنسى إلى التفكير فى إنفاذ مشروعه الهائل لحفر قناة السويس الذى تم فى سنة ١٨٦٩ م

ونشعر أنا قد استطر دنا كثيرا وأن الكلام قد طوح بنا بعيلها
 عن موضوع البحث الذي نعالجه فلنعد الآن إلى قناة عمرو بن العاص
 ونذكر هنا أن المراجع الإسلامية تذكر تاريخ هذه القناة والأدوار التي
 مرت بها منذ أقدم العصور ولكنها شأنها في كل التاريخ القديم تخلط
 التاريخ بالميثولوجيا وتذكر أسماء بعض الفراعنة لا يعترف العلم الحديث
 بها ولا يعرفها ومن ذلك ما رواه المقرئ الذي عقد فصلا طويلا في
 الجزء الثالث من خططه عنوانه ذكر خليج مصر إذ قال بعد ذكر
 قصة إبراهيم وسارة وهاجر الجارية المصرية التي أهداها طيطوس
 لسارة ؟

أن طيطوس عاش إلى أن وجهت هاجر من مكة تعرفه أنها يمكن
 جذب وتستقيته فأمر بحفر نهر في شرق مصر بسفح الجبل حتى ينتهي
 إلى مرقى السفن في البحر الملح فكان يحمل إليها الخنطة وأصناف الغلاة
 فتصل إلى جدة وتحمل من هناك على المطايا فأحيا بلد الحجاز مدة اه
 ولا شك أن هذا الكلام ظاهر خرافة .

أما ما يمكن أن يعتمد عليه فهو ما رواه المقرئ عن ابن عبد
 الحكم حيث قال ؟ إن الناس بالمدينة أصابتهم جهد شديد في خلافة
 أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في سنة الرمادة فكتب
 رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو بمصر من عبد الله عمر أمير
 المؤمنين إلى العاصي بن العاصي سلام أما بعد فلعمري يا عمرو ما تبالي
 إذا شربت أنت ومن معك أن أهلك أنا ومن معي فيساغوثاه ثم

يا فوئاه؟ فكتب اليه عمرو من عبد الله عمرو بن العاص الى أمير المؤمنين أما بعد فيا بيبك ثم يا بيبك قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي؟ قال المقرئ فبعث اليه بعير كان أولها بالمدينة وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضا فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس ودفع الى أهل كل بيت بالمدينة وما حولها بعير بما عليه من الطعام لئلا ياكلوا الطعام ويأتدوا بالحمة ويحتذوا بجلده وينتفع بالوعاء الذي كان فيه الطعام فيما أرادوا من خاف وغيره فوسع الله بذلك على الناس ولا شك أن الرواية التي نقلها المقرئ وأخرجها السيوطي أيضا فيها كثير من المبالغة ولكنها تدل على عظم ما بعث به عمرو وقد اطمأن الخليفة الى أن مصر بغناها تستطيع أن تمون الحجاز اذا نزلت به كارثة كما حدث في عام الرمادة فبعث الى عمرو يطلب إليه أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر فلما قدموا اختلى الخليفة بعمرو واقترح عليه أن يحفر خليجا من نيلها حتى يسيل في البحر فهو أسهل لحمل الطعام الى المدينة ومكة ووافق عمرو على رأى الخليفة ولكنه عند ما شاور أهل مصر ثقل عليهم ذلك وخافوا أن يدخل منه ضرر على مصر فاقترحوا على عمرو أن يعظم ذلك على أمير المؤمنين فلما رجع عمرو الى الخليفة أدركه بظننته سبب عودته فشدد عليه في ضرورة حفر الخليج والزمه بالفراغ منه في سنة وعاد عمرو الى مصر ورأى أن حفر الخليج يغضب القبط إذ يخرج طعام أرضهم وخصبها الى أرض الحجاز فكتب الى الخليفة يتمهل أسبابا لعدم قدرته على

حفر الخليج فكتب اليه الخليفة يهدده ان لم يفعل بالعزل هذه خلاصة
 ما أورده المؤرخون المسلمون عن سبب حفر الخليج وفي رأينا أنها
 في مجموعها صحيحة وإن كان فريق آخر من المؤرخين يرى أن هذه
 القصة اخترعت في الأزمنة المتأخرة وإن عمرا بما جبل عليه من نشاط
 أقدم على حفر الخليج مستعينا ببعض الأجزاء القديمة التي كانت باقية
 من خليج تراجان وبعض الأقباط الذين ذلوا على مواضع الأجزاء
 المطمورة منه وقد كافأ عمرو هؤلاء القبط برفع الجزية عنهم ومسألة
 أخرى يختلف فيها المؤرخون وهي التاريخ الذي حفر فيه الخليج والمدة
 التي استغرقتها عملية الحفر فالكندي يقول أن ذلك كان في سنة ٢٣ هـ
 وأن الحفر استغرق ستة أشهر ، وتلزم يقول أن سنة ٢٣ هـ تبدأ في سنة
 ٦٤٣ م وهو يرى أن الخليج حفر في شتاء عام سنة ٦٤١ - سنة ٦٤٢ م لأن
 من المعلوم أنه قبل موت عمر في ذي الحجة سنة ٢٣ هـ كانت السفن المصرية
 تأتي إلى بلاد العرب تحمل البضائع إليها ولا يعقل أن كل هذا الخليج
 يمكن أن يحفر ويجهز لتسير السفن في أقل من سنة - ويعزز ما أورده
 البلاذري من أن عمر بن الخطاب كتب في سنة ٢١ هـ إلى عمرو بن
 العاص يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ويأمره أن يحمل ما يفيض
 من الطعام في الخراج إلى المدينة في البحر ما يعزز للتاريخ الذي ذهب
 إليه بتلزم وهو شتاء ٦٤١ - ٦٤٢ م وما ورد في بعض الكتب من
 أن الخليفة ذهب إلى الجار وهي فرضة المدينة - يرى مجيء السفن

الآتية من مصر وهذا يدل على أن الخليج كان تاما ومستعملا قبل وفاة عمر في نوفمبر سنة ٦٤٤م

وتكاد تجمع كل الروايات على أن الخليج الذي كان يبلغ طوله تسعون ميلا تم حفره في مدة قصيرة تبلغ السنة ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن بعض أجزاء القناة كان لا يزال صالحا للملاحة وقد ذكر لين بول أن عمرا كان يلجأ إلى نظام السخرة الذي يرجع إلى أقدم العصور وأنه كان يحتفظ بقدر عدده ١٢٠ ألف عامل يشتغلون باستمرار في العناية بالجسور والترع وتحصينها وصيانتها وأر الخليج القديم الذي ينسب إلى آميس تراجان والذي كان يصل بابليون بالبحر الأحمر كان قد طم فطمره وحفروه وأعادوا فتحه في أقل من سنة وأرسلت الغلال في المراكب إلى المدينة بدلا من إدخالها في القوافل كما حدث في العام السابق؟ وإذا كان صحيحا ما أورده لين بول أن عمرا كان يحتفظ بهذا العدد الضخم من العمال فلا شك أنه قد استخدمهم إن لم يكن استخدم عددا عظيما غيرهم من أهل البلاد في حفر هذا الخليج ولم يكن هذا بدعا فقد كان نظام السخرة قائما منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا ولم يبلغ إلا منذ عامين وكانت تبرره في معظم الظروف المصلحة العامة إذ كان الوسيلة الوحيدة لانقاذ البلاد من أخطار الفيضان وبخيل الينا أن عمرا في حفر خليج أمير المؤمنين قد ساق عددا عظيما من أهل البلاد للحفر يؤيد ذلك ما نقله بتلر عن حنا النيقوسى الذي وصف المسلمين وصفنا شديداتنا ولهم بالقول اللاذع فقال

وكان يرم على أهل مصر أشد وطأة من نير فرعون على بني إسرائيل
ولقد انتقم الله منه انتقاما عادلا بأن أغرقه في البحر بعد أن أرسل
صنوف بلائه على الناس والحيوان ونسأل الله إذا ما حل حسابه لهؤلاء
المسلمين أن يأخذهم بما أخذ به فرعون من قبل؟ اه كلام حنا النية ميوتسي
وقد علق عليه بقلر بكلامه إن هذه الشدة جاءت عفوا في وقت الفتح
ولم تكن صفة ثابتة لحكومة عمرو في مصر.

وقد ذكر بطلر؟ أن عمرا كان ينوي حفر خليج بين بحيرة التمساح والبحر الأبيض المتوسط فيكون بذلك قد قطع البرزخ والبحر كما هو اليوم ولكن عمر بن الخطاب أبي عليه ذلك وأنكره قائلا إنه يمكن من السير إلى البحر الأحمر وقطع السبيل على من أراد الحج وليس في هذه القصة شبهة تمنع من تصديقها؟ ولم يذكر بطلر المرجع الذي اعتمد عليه في نقل هذه الرواية ونحن لم نقع عليها في المراجع التي نحت أيدينا رغم إسهابها وتناولها كل صغيرة ولئن صحت هذه الرواية لدلت على بعد نظر كبير من جانب الخليفة وهو ما لا ننكره وإن كنا نستبعد صحة هذه الرواية.

وقبل أن نختم هذا الفصل نريد أن نذكر هنا أن هذا الخليج
ظل مفتوحا زهاء ثمانين عاما أهمل بعدها حتى ظم ؛ وقد ذكر المقرئ
أن عبد العزيز بن مروان بن علي قنطرة في ولايته على مصر ولم يزل
يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ثم أضاعته الولاة
بعد ذلك فترك وغلب عليه الرمل فانتقطع وصار ممتها إلى ذنب

التمساح من ناحية بطحاء القلزم وقد أمر أبو جعفر المنصور بسد الخليج
حينما خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينة ليقطع عنهم الطعام
وما زال مهملًا بعد ذلك حتى أعيد فتحه أيام الخليفة المهدي سنة

٢٨٠ م

قال المقريزي ما برح هذا الخليج متنزها لأهل القاهرة يعبرون
فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج
المعروف الآن بالخليج الناصري - وقال المسيحي وفي المحرم سنة ٤٠١ هـ
منع الحاكم بأمر الله من الركوب في القوارب إلى القاهرة في الخليج
وشدد في المنع وسدت أبواب القاهرة التي يتطرق منها إلى الخليج
وأبواب الطاقات من الدور التي تشرف على الخليج وكذلك أبواب
الدور والخواج التي على الخليج - وقال القاضي الفاضل في متجددات
حوادث سنة ٦٩٤ هـ ونهى عن ركوب المتفرجين في المراكب وعن
إظهار المنطق المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال وظهر في
هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . .
فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة ومعهم النساء الفواجر وبأيديهن
المزاهر يضرن بها وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة ومحارمن
من الرجال معهن في المراكب لا يمنعون عنهن الأيدي ولا الأبصار
ولا يخفون من أمير ولا مأمور شيئا من أسباب الانكار . . . ١ هـ

م - ١١ - تاريخ مصر

وما أردنا إirاده عن المقرزى لنعطى صورة عما شهد ، هذه الخليج في أيامه المتأخرة

ونختتم هذا الفصل بأن نذكر هنا أن هذا الخليج ظل قائما إلى أواخر القرن الماضى يحوس خلال القاهرة إلى مسافة ما فى الشمال الشرقى ويضفى على المدينة شيئا من الجمال على الرغم من الرأحة الكريهة التى كانت تنبعث منه بسبب مياهه الراكدة حتى طم فى سنة ١٨٩٩ م لأسباب صحية وحل محله الآن فى القاهرة شارع طويل يعرف بشارع الخليج المصرى يجرى فيه طريق الكهرباء

وقبل أن ننتقل إلى الباب التالى نذكر اتما للفتائدة أحدث المحاولات لوصل البحرين الأبيض والأحمر . فلما المحاولات الأولى فهى وصل نهر العاصى فى سوريا بنهر الفرات عند المنطقة التى يقترب فيها نهر الفرات جدا من بحر الشرق وبذلك يمكن أن تقرب المسافة من أوروبا إلى الهند عن طريق نهر الفرات والخليج الفارسى وتفكر فى هذا المشروع بعض الجهات الفرنسية ولا تزال إلى الآن تدرس بعض المصاعب الجغرافية والسياسية لتذليلها قبل الاقدام على تأسيسه وأهم المصاعب الجغرافية هى الفيضانات الفجائية لنهر الفرات ، وأما المصاعب السياسية فهى آتية من حكومة العراق التى لا تزال مترددة فى إقرار هذا المشروع

وتفكر انجلترا فى حفر قناة تعبر صحراء سيناء تمتد من العريش إلى العقبة ولكن تعترض هذا المشروع أيضا صعوبات جغرافية لأن

المنطقة التي ستمر خلالها القناة بعيدة عن موارد الماء العذب اللازم للعمال وفوق هذا فاز نفقات حفرها كبيرة جداً لأنها ستكون أطول بكثير من قناة السويس التي تقلل من نفقات الحفر فيها وجود عدة بحيرات في برزخ السويس.

وظهر في الأيام الأخيرة أن وزارة المستعمرات البريطانية تفكر في إنشاء قناة جديدة تصل ميناء العقبة بالبحر الميت والبحر الأبيض مختصرة صحراء سيناء وتنتهي عند حيفا على البحر الأبيض وهذا تحويل للمشروع السابق ويقول الخبراء أن هذه القناة ستكون لها أهمية حربية لا يستهان بها، ذلك إلى أنها ستسهل مهمة استغلال عدد كبير من المناجم الموجودة في تلك المناطق راجع (المصور عدد ٧٥٧ بتاريخ ١٤ أبريل سنة ١٩٣٩)

وهناك مشروع جديد نبت في مصر في الشهور الأخيرة ذلك أن الاستاذ عزيز بك خانكي يقترح حفر قناة أهلية يطلق عليها اسم فاروق الأول، وتبدأ القناة من رشيد مارة بفوة المحمودية ودسوق والرحمانية وشبراخيت وتكلا العنب وكفر الزيات وبنها والقناطر الخيرية والقاهرة ثم توصل بترعة الاسماعيليه وتنضمي بذلك الى السويس ولما كانت المسافة بين الاسكندرية وبور سعيد ٢٧٣ كيلو مترا والمسافة بين بور سعيد والسويس ١٦٤ فيكون مجموع المسافة بين الاسكندرية وبور سعيد ٤٣٧ كيلو مترا أما المسافة بين

هاتين المدينتين (رشيد والسويس) نعد حفر القناة فستكون حوالى
٣٣٧ كيلو مترا

ويرى عزيز بك خانكى صاحب المشروع أن مصر ستربح من
درائه خمسة ملايين من الجنيهات فى العام يضاف الى ذلك أن الوجه
البحرى سيحصل على فوائد تجارية حمة من هذه القناة وفوق هذا
فان تكاليف إنشاء هذه القناة ستكون أقل من تكاليف حفر قناة
السويس ذلك لأن الأمر لا يحتاج فى الواقع إلى توسيع مجرى النيل
ومجارى القنوات الموجودة الآن دون حاجة إلى حفر مجرى جديد
علاوة على أن القناة ستتم فى أرض خصبة على عكس قناة
السويس التى حفرت فى الصحراء حيث لم يكن الماء العذب يصل إلى
العمال بسهولة ؛ هذا إلى أن نفقات صيانتها ستكون أقل من نفقات
صيانة قناة السويس راجع الصحف (راجع الصحف المصرية التى
صدرت فى شهر ابريل وعدد المصور السابق)
ولا يزال هذا المشروع قيد البحث الآن .

الباب السادس

ولايه عمرو بن العاص على مصر

تاريخ عمرو قبل الفتح

لم يبق أمامنا بعد إذ أتينا على وصف الفتح العربي لمصر وشرحنا الكلام عن الحوادث الهامة والمسائل الأخرى المتعلقة بذلك الفتح إلا أن نتناول مصر الآن كولاية إسلامية هامة من ولايات الخلافة كان أول ولايتها أو عمالها عمرو بن العاص صاحب اليد الطولى في إتمام ذلك الفتح بل وفي التفكير فيه كما بينا ونرى قبل أن نعالج تاريخ مصر في هذا التطور الخطير من مراحل تاريخها الحافل أن نأتي بفدلكة قصيرة عن حياة ذلك البطل العظيم . من أبطال المسلمين ولا نريد الاطالة خشية أن يجرنا الكلام إلى الخروج عن موضوع بحثنا واكتفاء بما هو مدون في كتب التاريخ العام .

ينسب عمرو بن العاص إلى العاص بن وائل السهمي الذي كان من ذوى اليسار في الجاهلية وكبار التجار الذين يحملون المتاجر من بلاد الحبشة واليمن إلى الشام وقد كان لأسرته شأن عظيم في الجاهلية إذ كانت فيهم الحكومة وهي إحدى المناصب العشرة الوراثية في نظام الحكم الجمهوري بمكة .

أما أمه فهي سلمى وقيل في بعض الروايات إيلي وقيل غير ذلك
وقد اختارت العاص أباه من بين أربعة تنازعوا عليه هم العاص ، وأبو
لهب ، وأميمة بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، وكان الناس يعيرون
عمرا بسبب ذلك ونحن نعتقد أن هذا لا يضره لأنه غير مسئول عنه
ولا يطعن في كفايته ومقدرته ، وقد اختلف المؤرخون في السنة التي
ولد فيها وعقد بئر ماحقا في كتابه عاج فيه موضوع سن عمرو بن
العاص ورجح قول النواوى الذى قال إن سن عمرو عند وفاته كانت
سبعين سنة ومعنى هذا أنه ولد في سنة ٥٩٥م وأن عمره كان حوالى
أربع وأربعين سنة وقت فتح مصر وهو يستبعد أن يكون عمرو
فتح مصر وهو فى السادسة والستين من عمره لأن هذا السن تعوقه
عن هذا القيام لهذا الأمر ، ولكننا نميل إلى الرأى القائل بأن عمرا
توفى فى سن التسعين وعلى ذلك تكون ولادته قبل الهجرة بسبع
وأربعين سنة تقريبا ونرى أن كبر السن ما كان ليعوق الرجل النشط
عن القيام بمثل ذلك العمل وأمثلة التاريخ كثيرة لتأييد ما نقول .
ويرجح لدينا أن عمرا نشأ فى كنف أبيه وربى تربية أبناء
الأشراف فى الجاهلية وقد اشتهر منذ صغره بالفصاحة والابانة فى
الأمر ولعله نشأ نشأة أبيه التجارية وكانت كثرة سفره للتجارة من
الأسباب التى فتقت ذهنه ووسعت أفقه ، وقد أشرنا من قبل إلى
قصة سفره إلى مصر فى الجاهلية وعلقنا على هذه القصة فارجع إليها .
وظهر الاسلام فكان من المناوئين للمرسول عليه السلام وبعثته

قريش ضمن من بعثت سفير إلى النجاشي ليرد المسامين الذين هاجروا إليها
فرارا من اضطهاد قريش لهم ثم أسلم في سنة ثمان من الهجرة مع
خالد بن الوليد قبل الفتح وقد فرح الرسول عليه الصلاة والسلام
باسلامهما كما فرح باسلام عمر بن الخطاب من قبل ويرى بعض المؤرخين
أنه لم يسلم إلا بعد أن وثق بأن الاسلام قد تأصلت جذوره في بلاد
العرب وأنه لن يكون مقصورا عليها بل سيتجأ ز إلى الدول الأخرى
والقائلون بهذا يرمون إلى أن عمرا إنما أسلم طلبا لحسن المكانة في ظل
هذا النظام الجديد الذي رأى يثاقب بصره أنه سيسود ، ولكن
حوادث التاريخ تؤيد أن الرجل أخلص للدين الجديد وعرف الرسول
فيه ذلك ، فعهد اليه ببعض الأعمال الهامة فوله قائدا على سرية ذات
السلسل وهي السرية التي كانت تضم بين رجالها ثلاثة من أقطاب
المسلمين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وقد ولاه الرسول أيضا
على سرية لهدم سواع صنم هذيل الواقعة على مقربة من مكة ثم
وله عليه الصلاة والسلام على الصدقة بعث بكتاب معه إلى
ملكى عمان جيفر وعباد ابني الجنداء وما زال عمر وموليا هذا المنصب
الديني زهاء سنتين حتى قبض رسول الله ﷺ وانتخب أبو بكر خليفة
فأقره على عمله ثم كانت الردة فاستدعاه أبو بكر وعقد له لواء حرب
قضاة الذي كان قد جاربهم في زمن النبي عليه الصلاة والسلام في
حادثة ذات السلسل فأبلى بلاء حسنا وعاد حاملا ألوية النصر ، ثم
رده أبو بكر إلى عمله في عمان وبعد ذلك تخيره قائدا من بين القواد

الأربعة أبو عبيدة ، وعمرو ، ويزيد ابن أبي سفيان ، وشرحبيل بن
 حسنة لفتح الشام وفلسطين وتخير لعمر و فلسطين ، فسار اليهم في
 تسعة آلاف وخاض غمار عدة معارك فيها تم اشترك في وقائع اليرموك
 ودمشق والأردن وتجات شجاعته في مواقف عدة هناك ، ثم مات
 أبو بكر وتولى عمر ؛ فأقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر
 إلا ما كان من عمرو بن العاص و خالد بن الوليد فانه ضم خلد إلى أبي
 عبيدة وأمر عمرا بمعونة جنود المسلمين حتى يصير الحرب إلى فلسطين
 ثم يتولى حربها ، وكان انتصاره على أرتابون قائد الروم في معركة اجنادين
 ذا أثر كبير ثم أخذ يتمم بعد ذلك فتح مدن فلسطين حتى انتهى الأمر
 إلى حصار بيت المقدس ومجىء الخليفة عمر لاستلامها وإذ ذاك بدأت
 محاولات عمرو في حمل الخليفة على فتح مصر تلك المحاولات التي فصلنا
 الكلام عليها تفصيلا في الباب الثالث .

وصف عمر لمصر

ولما تم الفتح الذي وصفناه في الفصول السابقة وبعث عمر بجبره
 إلى الخليفة يخبره الخبر فرد الخليفة منشطا وسأله أن يصف له مصر
 فكتب إليه ذلك الكتاب الذي رواه كل المتأخرين ونحن وإن كنا
 نشاك في صحة نسبته إلى عمرو من ناحية الأسلوب إلا أننا لانجد بدا
 من إثباته هنا .

ورد إلى كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر

أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ؛ طولها
 شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخطط وسطها
 نيل مبارك الغدوات ؛ ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان
 كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تده
 عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما صلحهم عجاجه ، وتعظمت أمواجه
 فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من قري بعضها إلى بعض إلا في
 صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كانهم الخايل ورق الأصائل
 فإذا تكامل في زيادته ، نقص على عقبه كأول ما بدأ في جريته ؛ وطما
 في درته ، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة بحرنون
 بطون الأرض ويبدرون بها الحب ، يرجون بذلك الثناء من الرب ،
 لغيرهم ماسعوا في كدم ، فإله منهم بغير جدم ، فإذا أحرق الزرع وأشرق
 سقاء الندى وغداه من تحتته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة
 بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء فإذا هي ديباجة
 رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذي يصلح هذه البلاد وينميتها
 ويقر قاطنيها فيها ، إلا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى
 خراج ثمرة إلا في أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها
 وترعها ، فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع
 المال والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل .

قال ابن تغري بردي الذي نقلنا عنه هذا الكتاب إن رعم بن الخطاب لما

ورد عليه هذا الكتاب قال الله درك يا ابن الماعص ، لقد وضفت لي خيرا
كأني أشاهده .

كفالة عمرو للحرية الدينية

أشرنا بعد الكلام على حصن بابليون (ص ٧٦) إلى الأمان الذي
أعطاه عمرو للمصريين على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم
وصلبهم وبرهم ومحرمهم إذا دفعوا الجزية وما كان من أمر أثر ذلك
الأمان في دولة الروم ونضيف هنا إلى أن الحرية الدينية التي أشار
إليها عمرو في عهده قد أخذت مظهرا قويا في إعادة بنيامين بطريق
القبط ، وقد سبق أن ذكرنا أن بنيامين فر من وجه قيس واختفى
طوال السنوات العشر التي اضطهد فيها قيس الأقباط ، وقلنا إن السعي
كان حثيثا غير منقطع وراء بنيامين ولكنهم لم يعثروا عليه إذ كان
يهرب متنقلا من دير إلى دير في أنحاء الصعيد وغيره حتى أصبح
يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريحا لانكاد تهب الحياة فيه مما
أصابه من الوطء والعسف والآن وقد تم الفتح وأصبحت مصر تعلو
بحماية الاسلام عليها جميعا تنفس الناس الصعداء في عباداتهم ، وعادت
الحياة بشكل خاص إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد جو الحرية
الدينية وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذي يحق أن يكون مذهب
الامة السائد ولم يكن للمسلمين بطبيعة الحال مصلحة في مناصرة

حزب ديني على آخر ، فدعى عمرو بن العاص بنيامين الى الظهور في سنة ٦٤٤ م أى في العام الثالث للحكم الاسلامي في مصر ، وقد ذكر ساويرس أن الامان الذي كتب به عمرو كان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه وإن الذي دفع عمرا إلى كتابته رجل قبطي اسمه سنوتيس أو شنوده وكلمت صورة الكتاب كما يلي :

أينما كان بطريق القبط بنيامين نعه الحماية وامان وعهد الله فليأت البطريق الى ههنا في امان واطمئنان ليلى أمر ديارته ويرعى أهل ملته ؟ وجاء في كتاب أبي صالح أن عمرا كتب في كتابه قوله فليأت الشيخ والبطريق آمنا على نفسه وعلى القبط الذين في أرض مصر ، الذين في سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة الخ ، ويشبه هذا النص في مجموعة النص السابق ، وقد روى المقرئ أن كتاب عمرو هذا نشر في الوقت الذي جاء فيه رهبان وادى النظرين إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكم المسامين إذ قل ؟ إن سبعين ألفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو وكان كل منهم يحمل في يده عصا فلما دأوا له بالطاعة أعطاهم كتابا

يقول ، بتلر أنه كان عهد امان ولعله كان العهد الذي نذكره الآن هو عهد بنيامين ، وهو لا يستبعد خروج الرهبان إلى عمرو ولكنه يقول أن عددهم دخلت عليه مبالغة كثيرة على عادة العرب في أخبارهم ، ويرى أن العدد كان لا يتجاوز السبعين أو السبعائة على أكثر تقدير

وعلى الرغم من أن مقر بنيامين لم يكن معروفاً إلا أن عهد
الأمان لم يلبث أن بلغه فعاد من مخبئه ودخل الأسكندرية دخول
الظافر بعد غياب دام ثلاثة عشر عاماً، عشرة منها وقع فيها الاضطهاد
الأكبر، والثلاثة الباقية كانت في مدة حكم المسامين، ويرى بقل أن
في مواصلة اختفاء بنيامين وعدم ظهوره بعد طرد الروم من مصر دليل
جديد على أن القبط لم يساعدوا العرب ولم يرحبوا بهم، يروا خلاص فيهم،
وهو يقول لو صح أن القبط رحبوا بالعرب لكان ذلك عن أمر بطر يقهم
أو رضائه ولو رضى بنيامين بمثل هذه المساعدة لما بقي في منفاه ثلاث
سنوات بعد استئجاب الأمر للعرب ولما عاد بعهد وأمان لا شرط فيه
وابلغ شنوده عمرو بن العاص مقدم بنيامين فأمر باحضاره اليه وأكرم، شواه
وكان بنيامين ذاهيبة وهياة تلوح عليه سيما الوقار والجلال، فأثر منظره
ومنطقه الرزين في نفس عمرو وأثرا عميقا، حتى قال لأصحابه: انى لم أر
يوما في بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال
الدين، وكانت النتيجة أن عمرا أقره على الولاية الدينية الأقباط فانتعش
بذلك مذهب القبط وعاد اليه الكثيرون ممن رضوا بمذهب خلقدونة
فرارا من اضطهاد قيرس لهم، ونحب أن نشير هنا إلى أن هذه الحرية
الدينية التى وضع دعائمها عمرو في أول الحكم الاسلامى بمصر وصار عليها
بعض الولاة كانت من الأسباب التى أخرت انتشار الاسلام في مصر
وجعلت سيره بطيئا على عكس ما حدث في المستعمرات الاسلامية
الأخرى كالشام وفارس مما سنعود إلى تفصيله في موضوع آخر، وقد

ذكر بعض المؤرخين القبط أن البطريق طلب إلى المطارنة الذين اتبعوا
مذهب الدولة أن يرجعوا إلى سابق عهدهم وملتهم فعاد عدد كثير منهم
يذرفون الدمع ندما ، وأبى فريق العودة حتى لا تعرف عنهم ردتهم
الأولى :

ووضع بنيامين مشروعا لاصلاح الكنائس والأديرة القبطية التي
هدمت وأهممت في فترة الاضطرابات السابقة فأقره عمرو على ذلك ،
وساعده في الحصول على المال اللازم لذلك الاصلاح حتى أنه على ما أراد
وقد وصف ساويرس المؤرخ القبطى زيارة بنيامين لدير « مقاربوس »
لمباركة الكنيسة التي بنيت في الصحرا هناك وذكر كيف تلقاه بازل أو
باسيلي مطران نيقموس ورحب به في موكب حملت فيه بين يديه
المباخر وسعف النخيل ، وفي اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبه
احتفل بمباركة الكنيسة وألقى بازل كلمة بين يدي البطريق شكر
فيها الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية
وأن يرى من فيها من الآباء المقدسين والاخوة الطيبين الأبرار ويشهد
بها شاعر الدين القويم ثم شكر الله على أن انجاء من الكفرة وحفظ
قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الشرير الذى شرده فعاد إلى أبنائه براهم
ملتفين حوله مرة أخرى ، قال بترل ، وليست هذه لغة قوم يشعرون
بأنهم فى قيد الذل ولكنها لغة تنم عن الاتهم — ما ج بالنجاة والخلاص ،
وأورد ساويرس رد بنيامين الذى يقول فيه كنت فى بلدى الاسكندرية
فوجدت فيها سلاما وأمنا من الخوف بعد البلاء والاضطهاد الذى صبه

على رموسنا الكفرة وقد وصف قومه بأنهم فرحوا كما يفرح الاسخال
 إذا ما حلت لهم قيودهم وأطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم قال بتلو ،
 وقد كتب حنا النيقية سى بعد الفتح بخمسين عاما وهو لا يتورع بأن
 يصف الاسلام بأشنع الأوصاف ويتهم من دخل فيه بأشد التهم ولكنه
 يقول في عمرو ؟ إنه تشدد في جمع الضرائب التي وقع الاتفاق عليها
 ولكنه لم يضع يده على شيء من ملك الكنائس ولم يرتكب شيئا من
 النهب أو الغصب بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة من
 حياته - ويقول مؤرخ آخر : إنه رأى على جدران المعلقة عهدا كتبه
 عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة وهو يلعن من يسعى من المسلمين
 إلى حرمان القبط منها .

من هذه الأمثلة وغيرها يتضح لنا أن عمرا كفّل الحرية الدينية
 للأقباط كفلا تاما ولا يجوز أن يخاطر أن هذا كان من عمرو متمقا لمذهب
 الأكثرية من الشعب واسترضاء لهم إذ الواقع يؤيد أن عمرا كفّل الحرية
 الدينية لجميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم فلقد ورد في الأخبار
 أن القبط سعوا عند عمرو إلى الإيقاع باتباع المذهب المملوكاني
 والاقتصاص منهم جزاء ما لاقوا من العذاب أيام الاضطهاد
 الأعظم ولكن عمرا لم يمكنهم من هذا ووزع تسامحه على الجميع
 بالتساوى ، وأظل بحمايته اليعاقبة والمملوكانيين على السواء يؤيد ذلك
 ما ذكره ساويرس من أن أسقف مملوكانيا بقى على مذهبه حتى مات ، وأن
 كثيرا من كنائس المملوكانيين بقيت إلى ما بعد الفتح بمدة طويلة

ولا تزال إحدى هذه الكنائس على برج قصر الشمع . سكان القبط
ومعقلهم إلى يومنا هذا .

ولسنا في حاجة إلى القول في أن هذه الحرية الدينية وتلك الحماية
التي استظل بها أهل الذمة في مصر كانت مقيدة في أول العهد الإسلامي
بمصر بتييد واحد هام وهو دفع الجزية

ولسنا الآن في موضع مناقشة ما طرأ من تغيير فيما بعد ولا
ما اتصل بالجزية من شروط أخرى غير أننا نذكر أن دفع الجزية تقييد
فيما بعد بنوعين من الشروط ؛ فالنوع الأول من هذه الشروط ما يجب
لزومه واتباعه في كل الأحوال ، والنوع الثاني ما يكون لزومه واتباعه
مقيدا بحسب شرط العقد إن وجد

وشروط النوع الأول هي :

- ١ - أن لا يعتدى على القرآن وأن لا تحرق مصاحفه
 - ٢ - أن لا يقال إن النبي كذاب أو يحقر في القول .
 - ٣ - أن لا يسب دين الاسلام وأن لا يرد عليه بالتكذيب
 - ٤ - أن لا يتزوج مسيحي من امرأة مسلمة .
 - ٥ - أن لا يغري مسلم على الارتداد عن الاسلام أو يؤذى في
ماله أو نفسه .
 - ٦ - أن لا يساعد أعداء الاسلام وأن لا يكرم أغنيائهم .
- وأما الأمور التي يتبع فيها شرط العقد فهي :

١ - أن يلبس أهل الذمة لباساً يميزهم ويعقدوا الزناظر على أوساطهم .

٢ - أن لا يعلو في بنيانهم على المسلمين .

٣ - أن لا يؤذى المسلمون بقرع نواقيسهم ولا بترتيلهم في صلاتهم ولا بما يرون في عقائدهم سواء في ذلك اليهود أو النصارى .

٤ - أن لا يبدوا صلبانهم وأن لا يشربوا الخمر جهاراً ولا يظهروا غنازيرهم .

٥ - أن تقام مأتمهم بغير احتفال وتدفن موتاهم كذلك .

٦ - أن يركب أهل الذمة البرازين والخيول المعتادة وأن يتجنبوا

ركوب الأصائل

وقد نقل بطلر هذه الشروط عن الماوردي وهو يقول إنه ليس فيها ما لا يقبله العقل ولكنه يشك في أنها كانت مشترطة عند دفع الجزية في أول عهد الفتح العربي لمصر .

وهذا الذي أوردناه كله يؤيدون مرأه أن أهل مصر قد استضاءوا بنور شمس جديدة ظهرت فوق أفق واديهم بظهور المسلمين في بلادهم وانتقلوا من عهد طال عليهم فيه العسف والظلم والاضطهاد الديني بحمافة الروم الى عهد من السلام والطمأنينة والحربة الدينية .

قال بطلر قد يقال إن حكمهم الجديدين أدخلوا إلى الأرض ديناً غير دين المسيح وهذا حق غير أنهم في ذلك لم يروا إلا عدلاً من الله إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا ما خرج الروم من الأرض وانتصر

عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر وما أنزله بالقبط
وملأهم على يد قيرس فقد كان هذا سبب ضياع الروم وفتح المسلمين
لمصر ؟

والآن قد انتهينا من الكلام عن الاحوال الدينية في أول
عهد الفتح فانا ننتقل إلى الكلام عن مظهر آخر من مظاهر الحكم
الاسلامي في مصر وهو النظام السياسى الذى بدأه عمرو .

٤) ادارة عمرو واصلاحياته

فلما فى الباب الاول من هذا الكتاب عند الكلام على ادارة
مصر فى عهد الرومان ، إن الفتح الرومانى لمصر لم يغير من إدارتها
الداخلية كثيرا فقد كان من سياسة الرومان إذ ضموا إلى بلادهم
مستعمرة جديدة أن لا يغيروا من أنظمتها القديمة إلا بقدر ما يتطلبه
الظرف الجديد وأن الفتح الرومانى لم يغير فيها إلا الأسره الحاكمة
فحسب وسنحاول فى هذا الفصل أن نرى إن كان هذا الذى قررناه
يمكن أن يطبق على الفتح العربى أم لا ، ونقدم لكلامنا أن العرب
قبل خروجهم الى فتح البلاد وقبل البعثة النبوية لم يكونوا أهل
حكومة منظمة ذات ممتلكات تصرف أمورها ، بل أقصى ما نستطيع
أن نصف به أمهات بلادهم بأنها كانت حكومات مدن أهمها مدينة
مكة التى يمكن أن نصفها بأنها كانت جمهورية تجارية بلوثوقراطية

(والمقصود من كلمة بلوتوقراطية أنها حكومة الأغنياء) ويشرف عليها الأعضاء البارزون من بنى قصى .

وتوزع مناصبها العشرة الرئيسية في أكبر أفراد تلك البيوت وقد ترقى هذا النظام عند ما عم الاسلام شبه جزيرة العرب في آخر عهد النبي عليه الصلاة والسلام غير اننا لا نعتدى على الحقيقة في قليل أو كثير إذا قلنا أن العرب لم يكونوا إلا أهل تجارة أو حرب وإن فن الحكم وأساليبه شيء لم يحذقه العرب إذا جازلنا أن نقول انهم يعرفوه وأنه لم يكن بينهم نظام سياسى يمكن أن يتخذوه في مصر أو غيرها أو يدخلوا منه شيئاً في إدارة أمورها ومصر كما نعرف دولة عريقة في الحضارة والحكومة هيمنت عليها حكومات متعاقبة منذ القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد بين قومية واجنبية لا يهم في ذلك أن بعض تلك الحكومات كانت ساذجة في أساليبها ، وتنصف العرب إذ نقول إنهم كانوا أهل ذكاء وفهم سريع ومرونة عقلية عظيمة فكانوا يستطيعون أن يدركو بمنتهى السرعة الظروف التي يوجدون فيها ويعرفوا ما تتطلبه فيسرعون ببدء يهتمهم إلى انفاذه قال لين بول في كتابه مصر في العصور الوسطى ما نصه ؟ يخيل اليك أن العرب لم يحدوا تغييرات جارفة في إدارة مصر فقد كانوا يمتسزون بأنهم شعب يكيّف نفسه حسب الظروف ويقنع غالباً بأراء الشعوب الأخرى وقد وجدوا في مصر نظاماً مهيئاً فنسجوا على منوال سلفهم الرومان واتبعوا طرائقهم - وهى بلا شك طرائق شكائتها تجاريب الزمن

السابق — بتغيير طفيف وقد ظل هذا النظام قائماً بكل عناصره الأصلية إلى القرن الحاضر .

وذكر الأستاذ ميلن في كتابه المسمى مصر تحت الحكم الروماني (أن المديرين) أو حكام المقاطعات (والأمير) أو حكام المراكز (والخولي) أو مفتش الأراضي كان لوظائفهم في مصر الحديثة نظائرها تماماً في الإدارة الرومانية وهو قول نستطيع أن نستنتج منه أن هذا النظام تسلسل من أيام الحكم الروماني مجتازاً فترة الفتح العربي وما تلاها إلى وقتنا هذا ولما كانت البلاد في عهد الرومان مقسمة إدارياً إلى خمسة أقسام كبرى هي الاسكندرية وقيم فيها الحاكم الروماني وشرق الدلتا وبحكمه دوق ، وغرب الدلتا وتسمى ليبيا وبحكمه دوق ومصر الوسطى وتشمل الفيوم وما إليها ويسمى أركاديا وبحكمه دوق كذلك والجزء الباقى إلى الحدود الجنوبية ويسمى طيبة وبحكمه دوق كذلك فإن هذا النظام تقريباً ظل قائماً مع اختلاف في الأسماء وبعض الحدود ومع اختلاف أوضح إذ كان الحاكم الروماني يقيم في الاسكندرية بينما كان العامل العربي اقيم في القسطنطينية وقد أفرد المقرئى في الجزء الأول من خطته فصلاً ذكر فيه أعمال الديار المصرية وكورها منذ أقدم العصور فارجع إليه لأن المقرئى حجة في الطبوغرافيا المصرية وقد ذكرنا بعد كلامنا عن فتح الاسكندرية أن كثيراً من أكابر حكام الروم قد آثروا البقاء في مصر التي ولدوا فيها ونشأوا بين أحضانها على العودة إلى بلادهم التي لم يروها ولا شك أن عامة الروم تابعوهم في

ذلك فأما هؤلاء الحكام الذين بقوا فتد أثرهم عمرو بن العاص على وظائفهم فأسفرت عن سياسة حسنة أرادها عمرو أم لم يردّها. وأما الوظائف التي خلت بهجرة رؤسائها إلى بلادهم فقد عين عمرو فيهم رؤساء من القبط فكاد بذلك يصبح كل موظفوا الدولة من المسيحيين وقد ظلمت أسماء الروم وألقابهم باقية في حكم الاسلام رغم تطاول الزمن وبقي القبط يتابعهم العرب إلى حد ما حتى آخر القرن السابع يسمون المسجل أو السكرتير باسمه الروماني « خارطو لاريوس » ورئيسه باسم « الأيبر خوس أو الأرخون » ومقر الوالي باسم « البروتوريوم » وحاكم الاسكندرية باسم « الأوغسطين » وقد استمر لفظ (دوكس) أي الحاكم مستعملا حتى القرن الثامن بل لقد استعمله ساويرس وهو من كتاب القرن العاشر

وإذا كانت الألفاظ الرومانية تد بقيت فبلا شك أن طرائق الروم في تدوين دواوينهم قد بقيت أيضا وسنعرض لها في فصل تالي وعلاوة على الاعمال الادارية التي أقرها عمرو بعدة اصلاحات هامة في البلاد وقد أفردنا في الباب السابق فصولا للفسطاط وجامع عمرو ، وحفر خليج أمير المؤمنين ، ونذكر هنا أن عمرا قام باصلاح مقاييس النيل التي كانت قد تعطلت نذكر منها مقياس أسوان ، ومقياس أرمنت ، ومقياس منف . وكان اصلاح هذه المقاييس ضروريا لمعرفة الفيضان لتحديد الخراج ، وبمناسبة فيضان النيل نرى أن نشير إلى قصة ذكرها معظم المؤرخين المتأخرين تتعلق بما كان يفعله القبط عند

وفاء النيل فقد روى ابن تغربردى أنه لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بثوونه من اشهر القبط فقالوا أيها الأمير إن ليلتنا عادة أو سنة لا يجرى إلا بها ذلك أنه إذا كان في أثنى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم القيناها في هذا النيل فيجوى ، فقال لهم عمرو بن العاص إن هذا لا يكون في الإسلام وإنه ليهدم ما قبله فأقاموا بثوونه وأيدب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا فهموا بالجلء فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال له قد أصبحت أن الإسلام ليهدم ما قبله وقد أرسلنا اليك بطاقة ترميها في النيل إذا أتاك كتابي فلما ورد الكتاب إلى عمرو فاذا فيها من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر؛ أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجروا أن كان الله الواحد القهار الذى يحريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يحريك ، فعرفهم عمرو بكتاب الخليفة وبالبطاقة قبل يوم عيد الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصالحها إلا في النيل فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة -

قال جوجى زيدان : فلما رأى المصريون ذلك تمحبوا ووقع في قلوبهم الرعب وزاد احترامهم للخليفة وأوامره وأبطلوا تلك العادة القبيحة واستبقوا رمزا عنها تمثالا من طين يصنعونه كل سنة عند

فتتح الخليج يسمونه العروسة فيلقونه في الخليج وما زل ذلك جاريا إلى
عهد غير بعيد أثر الما كان يرتكبه المصريون القدماء من العسف في كل
سنة أثناء الفيضان

هذه هي الخرافة التي يحاول بعض المؤرخين أن يتخذ منها حقيقة
تاريخية يرجع بها إلى عهد الفراعنة واتخذ منها بعض الروائيين موضوعا
لقصصهم وهي على الرغم من طرافتها لا تمت إلى التاريخ الحقيقي
بسند وإذا كنا لم نسمع في تاريخ الفراعنة بأنهم كانوا يقدمون ضحايا بشرية
فالعصر المسيحي بلا شك بريء منها أيضا وإنما ترجع التبعة فيها إلى
خيال بعض المؤرخين المتأخرين

ومن الإصلاحات التي قام بها عمرو بن العاص في مصر تنظيمه
للقضاء وكانت أمور الناس إلى ذلك العهد في أيدي نواب مالين أو
عسكريين من قبل حكومة الروم يستبدون بالرعية كيف
شاءوا وليس من ينصف : قال جورجى زيدان : فأوجد لهم عمرو
المجالس النظامية وقسمها إلى مجالس دائمة وزمنية مؤلفة من أعضاء
ذوى نزاهة واستقامة ومقام رفيع عند الأهالي ولا يدلنا من
ذكر فضل هذا الفلاح لأنه أوجد هذه المحاكم عصر تحت اسم
دواوين ، أما أعضاؤها فينتخبون من الأهالي والأحكام تجري
بمقتضى عدل القضاء وتستأنف عند الاقتضاء لنقدها أو أبرامها ولم
تكن أحكام القضاة المسلمين تجري إلا على المسلمين باعتبار كونهم من
جيش الاحتلال ، والقضايا التي فيها أحد الخصمين قبطي كان لنواب

القبض حق الدخول فيها والعمل بمقتضى قوانينهم الدينية والأهلية اه:
 لقد جعلت هذه التنظيمات وذلك الاصلاح مكانة كبيرة لعمره
 في قلوب القبط فأحبوه كما أحبهم جنود العرب وتكاتف الكل على
 مساعدته في إصلاحاته العظيمة ودانوا له بالطاعة وأحبوا ولايته وكان
 يأخذ من الخراج ما لا بد منه لاصلاح البلاد ويأخذ لنفسه عطاءه
 ويعطى للجند أعطيتهم ويرسل ما بقي إلى الخليفة .
 وسنشرح في الفصل التالى الحالة المالية في ولاية عمرو .

(٥) الشؤون المالية

ذكرنا عند استعراضنا السريع لتاريخ مصر الرومانية في أول هذا
 الكتاب كيف أن الضرائب كانت فاحشة ومتعددة تتناول كل شيء
 فارجع إليها في « ص ١٥ » وما بعدها ، ونذكر هنا أن عمرا ، إن كان قد
 حافظ على طرق الروم في تدوين دواوينهم وجمع ضرائبهم إلا أنه
 بلا شك كان أخف منهم وطأة في جباية الأموال ، وكان مقدار الجزية
 والضرائب التي اتفق عليها أخف حملا على الناس وأقل احراجا لهم ،
 وقد شهد بذلك حتى المتعصبون من المستشرقين الذين يتلقفون الهفوات
 للمسلمين ، ولا تتفق المراجع الاسلامية على مقدار ما كان يدفع أولا
 عند الفتح العربى ، فيذكر المؤرخون أرقاما مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف
 يرجع في معظمه إلى احصاء أعداد من يفرض عليهم الجزية لأن قدر
 الجزية التي فرضها العرب على الذكور البالغين كان محمدا وهو دينارين

أى ما يبلغ جنبها مصر يا بنقوده هذه الأيام ، فالخلاف إذاً فى تقدير الجزية إنما كان يرجع إلى عدد من يصبح أن تفرض عليه - أما مقسداً لها عن كل فرد فكان ثابتاً - كذلك كان الخراج على الأرض الزراعية محسباً إذا كان يبلغ دينارين أيضاً عن كل فدان صالح للزراعة ، غير أن هذا الخراج على الأرض لم يكن ثابتاً كمقدار الجزية ؛ إنما كان يتغير بحسب علو الفيضان أو انخفاضه وبحسب حال الزراعة ، وقد روى ابن عبد الحكم أن زعماء الناس فى القرى كان عليهم أن يجتمعوا لينظروا فى حال الزراعة ويجعلوا جماية المال مناسبة لذلك ، فكانت اجتماعاتهم هذه تقابل فيما يعرف فى أيامنا هذه بلجان تقدير الضرائب ، ويخيل إلينا أن الاختلافات الكبيرة التى وقع فيها مؤرخوا العرب ترجع إلى الخلط بين جزية الروم وخراج الأرض ، إذ كان بعضهم يبنى تقديراته على أحدهما دون الآخر ، بينما يجمع آخرون بينهما فيضمون الخراج إلى الجزية ويذكرون تقديرهم على هذا الأساس ، ونحن نذكر لك فيما يلى بعض ما أورده هؤلاء المؤرخون

ذكر البلاذرى أن عمراً وضع الخراج على أرض مصر فجعل على كل جريب (الجريب ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً) ديناراً وثلاثة أراذب طعاماً وعلى رأس كل حالم دينارين ، وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب - وذكر فى موضع آخر أن عمراً جباى خراج مصر وجزيتها ألفاً وذكر فى موضع ثالث أن عمراً وضع على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أراذب حنطة وقسطى

زيت وقسطى غسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق
وتقسم فيها وأحصى المسلمون فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم
جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو عدل الجبة
الصوف ثوبا قبطيا وكتب عليهم بذلك كتابا إذا وفوا بذلك أن لا تباع
نساؤهم ولا أبناءهم ولا تسبوا وأن تقرر أموالهم وكنوزهم في أيديهم
وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر فاجازه - وذكر البلاذري في
موضع رابع أن أهل الجزية صولحوا في خلافة عمر بعد الصلح الأول
مكان الخنطة والزيت والخل والغسل على دينارين دينارين فالزم كل
رجل أربعة دنانير فرضوا بذلك وأحبوه .

وذكر السيوطي نقلا عن ابن عبد الحكم قال : كان عمرو بن العاص
لما استوثق له الامراء أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جباياتهم
بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد أهلها ، وان قل أهلها
وخربت نقصوا فيجتمع عرفاء كل قرية ورؤساءها فيتنظرون في العمارة
والخراب حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى
الكور ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى
وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل
قرية وما فيها من الأرض العاصرة فيخرجون من الأرض فدادين
لكنائسهم وحمالياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عدد
الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فاذا فرغوا نظروا إلى ما في كل
قرية من الصنائع والأجرا فقسموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت

فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت تكون إلا الرجل الشاب أو المتزوج ثم ينظرون فيما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسمونه بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقته فإذا عجز أحد وشكى ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال وإن كان منهم من يريدوا الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فإن تشاحوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قرارطا يقسمون الأرض على ذلك اهـ .

وقد أطلعنا في هذا الاقتباس لأنه يصور لنا بصورة شائقة الطريقة التي كانت تتبع في توزيع الضريبة على الأهالي ومقدار الحرية التي لقيها الناس في أول عهد الفتح الاسلامي . وقد روى السيوطي في موضع آخر أن عمرا جي مصر اثني عشر ألف ألف وجباها المقوقس قبله بسنة عشرين ألف ألف .

وذكر جورجى زيدان في الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي أن مصر لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبي ولا شيخ ثمانية ملايين منهم في الاسكندرية وحدها ثلاثمائة ألف ، فإذا أضفنا الى ذلك عدد الاناث والاطفال والشيوخ زادت جملمته على ثلاثين مليوناً وهو ثلاثة أضعاف سكانها اليوم (الكتاب مطبوع في سنة ١٩٠٢ م) هذا ما أخذه جورجى زيدان من كلام مؤرخى العرب ، قال وقد يطعن في صحة

هذه الرواية ولكن يستدل من يحمل أقوالهم في مصر أنها كانت في
رغد ورخاء وكان عمرها بالغاحد النهاية

وأورد موير في كتابه خلافة أن ضوءاً كثيراً ألقى على
طبيعة الحكم الإسلامي في مصر وبخاصة فيما يتعلق بنظام الضرائب
بعد أن اكتشف الأستاذ بل للبردية اليونانية والمعروضة الآن في
المتحف البريطاني ويستنتج من هذه البردية أنه كانت تحفظ في كل
قرية سجلات فيمن يجوز أن تفرض عليهم الضرائب ، فكان الحاكم
في القسطنطينية إذا أراد رجالاً أو مالا أو سلعا يبعث إلى كل مقاطعة
بالقدر المطلوب منها ومن كل قرية من قراها فكان الموظفون المحليون
يجمعون القدر المطلوب من دافعي الضرائب كل بنسبة ما يملكه
من أرض أو نخل أو كروم أو شجر منقط أو متاجر وكانت الضرائب
العادية تتكون من ضريبة المال وضريبة الغلال ، وكانت ضرائب المال
تشمل ضريبة الأرض والجزية ونفقات جمع هذه ، وكانت الجزية
تفرض على رؤساء الأسر فقط ، أما ضريبة الأرض فكانت تفرض
على الرجال والنساء على السواء ، وكانت المساواة تقضى بأن تفرض
ضريبة خاصة على أبواب الحرف أما ضريبة الغلال فكانت في
الغالب تتكون من الحنطة وفي بعض الأحيان من الشعير -
كذلك كانت تطلب الحكومة من الأشخاص القيام بخدمات
شخصية ولم تكن هذه سخرة لأن الذين كانوا يدعون
لهذه الخدمة كانوا يتناولون عنها أجوراً ، وكانت الحاجة ماسة إلى

ملاحين وهؤلاء كانوا يؤخذون من الرجال ذوى الحرف والصناعات المختلفة وكان معظم ما يجمع من الضرائب ينفق على العرب المقيمين فى مصر كذلك كانت تفرض ضرائب غير عادية لبعض اغراض خاصة فكان يطلب من بعض المقاطعات أن تورد عدد من جنود الخيل لأعمال البناء ؛ كذلك كان يفرض على الناس أن يقدموا طعاما وعلوفة لجند العرب اثناء تجوالهم لمدة ثلاثة أيام - ويفرق المؤرخون العرب فى معالجتهم لتاريخ هذه الفترة الاولى بين الخراج والجزية ولكن هذين اللفظين مترادفان تماما وهما يدلان على مقدار الدخل الذى كان يجمع اه موير

وذكر الاستاذ لين بول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى ما نصه ، أشرف عمرو من عاصمته الجديدة القسطنطينية على جباية الدخل اللازم لجمع مليون دينار من جزية الرؤوس وحدها فى العام الاول ؛ وجمع أربعة ملايين فى العام الثانى ، وثمانية ملايين فى العام الثالث (٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ م) وهو تدرج يشعرنا أن البلاد لم توضع مباشرة تحت الرقابة المالية ، وقد استطاع عمرو أن يرفع دخلا قدره ١٢ مليون دينار من سكان قدرهم ابن عبد الحكم بعدد يتراوح بين ستة وثمانية ملايين خلا النساء والأطفال ، ويرجح أن مفردات الدخل كانت كالتى ثلاثة مليون دينار من الخراج عن نحو مليون ونصف من الفدادين المزروعة ، وثمانية ملايين جزية رؤوس عن أربعة ملايين من

السكان المذكور البالغين ، ومليون دينار من المكوس والضرائب المختلفة .

ثم ناقش في هامش الكتاب أقوال مؤرخي العرب فقال ؟ من المستحيل أن نوفق بين تقديرات مؤرخي العرب فلقد ذكروا أن عمر اجمع ثمانية مليون دينار من جزية الرؤوس وهذا يستلزم أن الذكور الذين يجوز أن تفرض الجزية عليهم كانوا يقدرون بأربعة ملايين نسمة (لاسمة ولا ثمانية) ولكن اليعقوبي يذكر أن جزية الرؤوس حوالى سنة ٦٧٠ م بلغت خمسة ملايين دينار وهذا يستلزم أن يكون عدد الذكور البالغين مليونين ونصف نسمة أو أن يكون عدد كبير من الاقباط قد اعتنقوا الاسلام ليتخلصوا من الجزية وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين .

أما الخراج أو ضريبة الأرض فقد بلغت فى الجزء الأخير من القرن الثامن نحو أربعة وأربعين مليون درهم (أو ثلاثة ملايين وثلاث دينار) وهذا يتسق تماما مع مبلغ الخمسين مليوناً التى ربطها عمرو فى معاهدة سنة ٦٠٤ م ، وفى النصف الأول من القرن التاسع زادت ضريبة الأرض الى ما يقرب من أربعة ملايين وثلاثة أرباع مليون دينار وقد ذكر البلاذرى أنه فى آخر القرن الثامن حدد الدخل بمعدل أربعة دنانير عن كل رأس ولكن هذا يجعلنا نعتقد أنه فى تقديره جمع بين الدينارين المفروضين على كل رأس ، والدينارين المفروضين على كل فدان ، ا هـ لين پول وختم لين پول كلامه عن الضرائب بقوله

ان سياسة الخليفة كانت تنطوى على حسن معاملة الزراع فلم نسمع
 بأعمال القسوة ترتكب الا عندما كان يحاول أثرياء انقبض أن يحفظوا
 مواردهم لينجوا من دفع الضرائب، وكانت النتيجة لمباشرة هي المصادرة
 التي كانت تذكر فيها في بعض الأحيان ارقاما خرافية (لا يصدقها العقل)
 وقد حسن عمرو إنتاج الاراضى بواسطة الري، وكان يفرض نظام
 السخرة. الذي يرجع إلى أقدم عصور التاريخ، وقد ذكر أنه كان
 يحتفظ بعدد قدرة مائة وعشرين الف عالا لا يشتغلون باستمرار صيفا
 وشتاء في الجسور والترع والعناية بها وتحسينها وصيانتها اه
 (لاحظ أن البردية التي أشار اليها مور تذكر أن هؤلاء العمال كانوا
 يتناولون أجورا)

من كل هذه المراجع التي أوردناها ومن غيرها ممن لم نذكره
 نستطيع أن نستخلص لك المبادئ الآتية في شئون مصر المالية في
 أول الحكم الاسلامي

(١) أن الجزية التي فرضها المسلمون كانت بمعدل دينارين عن كل
 حالم وأنه كان يستثنى منها النساء والصبيان والشيوخ وأن عدد الذين
 كانت تنطبق عليهم هذه الشروط كان يبلغ نحو ستة ملايين نسمة
 وهو عدد يمكن في شيء من الحذر أن نستنتج منه أن عدد سكان
 مصر أيام الفتح كان يبلغ عشرين مليوناً على اعتبار أن ستة ملايين
 كانوا يدفعون الجزية وأربعة ملايين من الأطفال والشيوخ لا يدفعون
 فيكون عدد الذكور عشرة ملايين إذا أضفنا إليهم عشرة ملايين

أخرى للأنات على اختلاف اسنانهم كانت الجملة عشرين مليون نسمة وكانت الجزية في الغالب ثابتة إلا أن الحاكم كان له الخيار في أن يرفع جزء منها على الفقراء وأوساط الناس فيضعه على الأغنياء وفي ذلك من العدل ما فيه .

(٢) أن الخراج أو ضريبة الأرض فرض بمعدل دينارين أيضا عن كل فدان صالح للزراعة وإن متوسط ما كان يحصل من الخراج كان يبلغ أربعة ملايين دينار وهو رقم نستطيع أن نستنتج منه أن جملة الأراضي الزراعية كانت مليون فداناً وأكثر من ذلك بقليل وإن كان فريق من المؤرخين يرتفع بها إلى ثلاثين مليوناً وهو رقم لا نميل إلى تصديقه ، راجع المقرئى وجورج زيدان وكانت ضريبة الأرض أيضا غير ثابتة إذ كانت نسبتها ترتفع وتنخفض بالنسبة لفيضان النيل

(٣) أن العرب سواوا في الضرائب بين الناس ، والتزموا جادة العدل ، فلم يعفوا الاسكندرية من الجزية أو الخراج ، وقد كانت في أيام الرومان ممفاه (منع عنها هذا الاعفاء في السنوات الأخيرة لحكم الروم ولعل هذا من العوامل التي أحنقت أهل الاسكندرية على الفتح العربى .

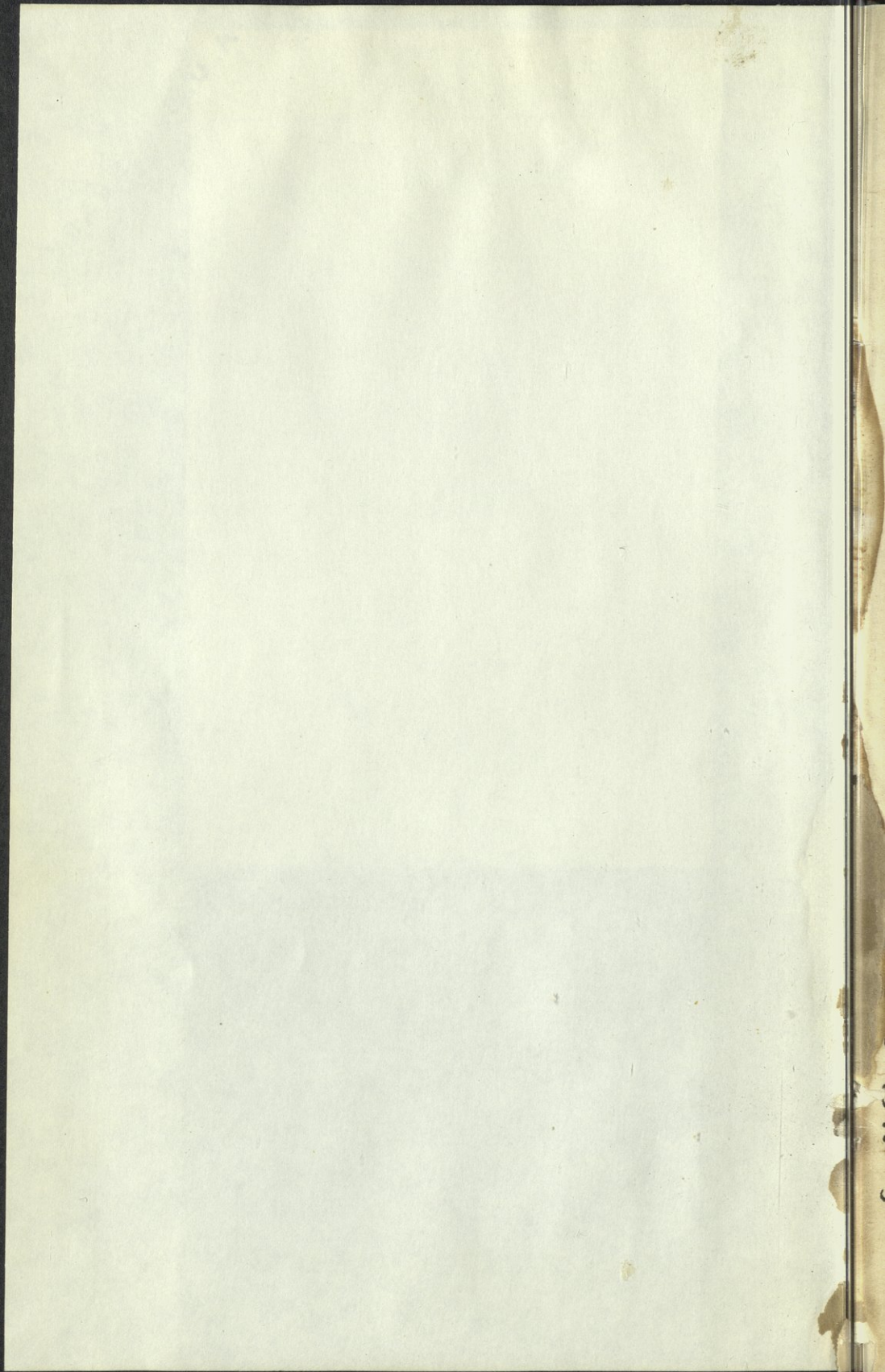
(٤) أن هذه الضرائب كان بعضها يجبى ذهباً والبعض الآخر يجبى عينا .

(٥) أنه كانت هناك بعض ضرائب صغيرة متعددة كتقديم بعض أدوات البناء وغيرها للعرب أو اضافة الجند العرب لمدة ثلاثة أيام

أثناء نجواهم ، مما يشبه ما كان يفعله الرومان ولكن مما لا شك فيه أنها كانت أخف وطأة من ضرائب الرومان التي كانت متعددة لا ضابط لمقدارها أو وقت جبايتها .

(٦) أن الشعب المصري كان له رأى في تحديد قيمة الضرائب ووقت جبايتها وهذا ما لم يكن معروفا لدى الروم وقد أورد الأستاذ مان فصلا طويلا للضرائب في كتاب مصر تحت الحكم الرومانى ذكر فيه كل أنواع الضرائب المباشرة وغير المباشرة على المصريين التي كانت تبهظ كواهلهم وتجملهم يفلتون بأنفسهم فراراً من وطأتها وبخاصة ضريبة إيواء الجند الرومانى وطبيعى أن عمر كان يبعث إلى الخليفة بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه من رواتب للجند والموظفين ونفقات حفر الخللجان وإقامة الجسور وبناء القناطر وغيرها من الأعمال العامة ولا نستطيع فى ضوء ما تحت أيدينا من المراجع الآن أن نحدد مقدار ما كان يتفق على هذه الأشياء ولا مقدار ما كان يرسل إلى المدينة ولا حتى نسبة ذلك إلى الدخل ولكن مما لا شك فيه أن القدر لم يكن واحداً فى كل عام

من هذا الاستعراض للشئون المالية فى أول الفتح العربى نستطيع أن نبين بجلاء كيف كان عمرو بن العاص حاكماً موقفاً عادلاً ، يرمى جانب الشعب المحكوم لدرجة تعدل إن لم تزد عن رعايته لمصالح الحكم وقد أدت حوادثه هذه فى معاملة الاقباط إلى سوء ظن الخليفة به بل وإلى اتهامه كما يتبين ذلك من الرسائل التى تبودلت بين الرجلين والتي سنفرد لها الفصل التالى :



DATE DUE

A. U. B. LIBRARY

JAFET LIB.

12 NOV 1991

JAFET LIB.

27 MAY 1993

A. U. B. LIBRARY

962:N146tA:c.1

نافع، محمد مبروك

تاريخ مصر الاسلامية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01059428

962:N146tA

• نافع

• تاريخ مصر الاسلامية

962

N146tA

